الجزء الثالث
سورة آل عمران
بسم الله الرحمن الرحيم
الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن
قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ
شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ
مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ
ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾
٥٠

معانى الكلمات :

القيوم: الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظهم

التوراة : الكتاب الذى أنزل على موسى عليه السلام . **الإنجيل** : الكتاب الذى أنزل على عيسى عليه السلام . **آيات محكمات** : واضحات .

زيغ : ميل وانحراف عن الحق . **تأويله** : تفسيره بما يوافق أهواءهم ورغباتهم .

أولو الألباب : أصحاب العقول . **من لدنك** : من عندك . **الوهاب** : كثير الهبة والعطاء والإنعام . **لا ريب فيه** : لا شك فى وقوعه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم أن توحيد الله تعالى هو أعظم قواعد الدين ، بل أهم قواعد الحياة الدنيوية السعيدة .

٢ ـ أن نوقن أن من أكبر نعم الله على الناس عموماً ، نزول القرآن على الرسول ﷺ ، لينقذ البشرية من الضلال والتيه ، ويهديها لما يصلح الدنيا والآخرة .

٣ ـ أن نهتم بقضية التوحيد ، إذ هى أصل الإيمان ، وإذا صح التوحيد صح الإيمان والعمل .

٤ ـ أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن القرآن الكريم هو وحده من بين الكتب السماوية الذى تضمن منهجاً كاملاً لحياة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة .

المحتوى التربوى :

تبدأ سورة آل عمران بمواجهة أهل الكتاب المنكرين لرسالة النبى ﷺ ، وهم بحكم معرفتهم بالنبوات والرسالات والكتب المنزلة والوحى من الله ، كانوا أولى الناس بأن يكونوا أول المصدقين المسلمين ، لو أن الأمر أمر اقتناع بحجة أو دليل ! وتعمد الآيات إلى أكبر الشبهات التى تحيك فى صدورهم ، والتى يتعمدون نشرها فى صدور المسلمين فتكشف مداخلها فى القلوب ومساربها ، وموقف المؤمنين منها وموقف أهل الزيغ والانحراف ! وتصور حال المؤمنين من ربهم . والتجائهم إليه ، وتضرعهم له ، ومعرفتهم بصفاته تعالى .

فتبدأ بتحرير التوحيد الخالص الناصع الذى هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين : يهودًا أو

نصارى . على اختلاف مللهم ونحلهم جميعاً . والعقيدة هنا كما **يقول صاحب الظلال** تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدًا كاملًا دقيقًا .

ويقول صاحب الأساس : « ومن مظاهر وحدانيته وقيوميته وعزته وحكمته : إنزال الكتب ، وامتحان الخلق بمعانيها ومحاسبتهم عليها ، ومعاقبة الكافرين وإثابة المؤمنين ، وكذلك من مظاهرها أن ينصر المؤمنين على الكافرين فى الدنيا والآخرة ، ويعذّب الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وكذلك تزيين الحياة الدنيا للناس لتقوم الحياة ! وليبتلى بذلك خلقه وليمحص أهل التقوى من غيرهم .

ويقول صاحب الظلال : « إن الذى يمتلئ شعوره بوجود الله الواحد الذى هذه صفته ، لابد أن يختلف منهج حياته ونظامها من الأساس عن الذى تغيم فى حسه تلك التصورات التائهة المشوهة . فلا يجد فى ضميره أثراً لحقيقة الألوهية الفاعلة المتصرفة فى حياته !

إنه مع التوحيد الواضح الخالص لا مكان لعبودية إلا لله ، ولا مكان للاستمداد والتلقى إلا من الله ، لا فى شريعة أو نظام ، ولا فى أدب أو خلق ، ولا فى اقتصاد أو اجتماع . ولا مكان كذلك للتوجه لغير الله فى شأن من شؤون الحياة ، وما بعد الحياة ؛ ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية ـ لا لطبيعة الاعتقاد وحده ـ فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق انبثاقًا من حقيقة هذا التصور الإسلامى عن التوحيد الخالص الجازم ، التوحيد الذى لا يستقيم عقيدة فى الضمير ما لم تتبعه آثاره العملية فى الحياة ، من تلقى الشريعة ، والتوحيد من الله فى كل شأن من شؤون الحياة ، والتوجه كذلك إلى الله فى كل نشاط ، وفى كل اتجاه .

وعقب هذا الإيضاح الحاسم فى مفرق الطريق، بإعلان الوحدانية المطلقة لذات الله وصفاته، يجىء الحديث عن وحدانية الجهة التى تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات ، والرد على أهل الكتاب وغيرهم من المنكرين لرسالة محمد ﷺ وصحة ما جاء به من عند الله . وتتضمن الآيات كذلك التهديد الرعيب للذين كفروا بآيات الله ، وتلوح لهم بعزة الله وقوته وشدة عذابه وانتقامه ، وفى صدد هذا التهديد يؤكد لهم علم الله الذى لا يند عنه شىء فلا خفاء عليه ، ولا إفلات منه، وفى خلال هذا العلم اللطيف الشامل الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، يلمس المشاعرالإنسانية لمسة رفيقة عميقة ، تتعلق بالنشأة الإنسانية المجهولة فى ظلام الغيب وظلام الأرحام ، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك .

بعدئذ يكشف الذين فى قلوبهم زيغ، الذين يتركون الحقائق القاطعة فى آيات القرآن المحكمة، ويتبعون النصوص التى تحتمل التأويل ، ليصوغوا حولها الشبهات ؛ ويصور سمات المؤمنين حقاً وإيمانهم الخالص ، وتسليمهم لله فى كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال .

قال صاحب الأساس عن سمات المؤمنين الراسخين فى العلم ، فيما رواه نافع بن يزيد: قال : « يقال: الراسخون فى العلم: المتواضعون لله المتذللون فى مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم . وقد ورد عن رسول الله ﷺ وصف للراسخين فى العلم هو : «من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين فى العلم » .

وهذا تصوير صحيح للراسخين فى العلم ، فما يتبجح وينكر إلا السطحيون الذين تخدعهم قشور العلم ، فيتوهمون أنهم أدركوا كل شىء ، وأن ما لم يدركوه لا وجود له ؛ ومن ثم يقابلون كلام الله المطلق بمقررات عقليه لهم ! صاغتها عقولهم المحدودة ! أما العلماء حقاً فهم أكثر تواضعًا ، وأقرب إلى التسليم بالعجز البشرى عن إدراك حقائق كثيرة تفوق طاقتهم ، وترتفع عليها .

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لأن الحق المستقر فى فطرتهم الموصولة بالله ، ينبض ويبرز فيدركون الحق ويتذكرون فتنطلق ألسنتهم وقلوبهم فى دعاء خاشع وفى ابتهال منيب : أن يثبتهم على الحق ، وألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى ، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله ، ويتذكرون يوم الجمع الذى لا ريب فيه ، والميعاد الذى لا خلف له .

وهذا حال الراسخين فى العلم مع ربهم ؛ وهو الحال اللائق بالإيمان ؛ كما يقول صاحب **الظلال** :«المنبثق من الطمأنينة لقول الله ووعده ؛ والثقة بكلمته وعهده ؛ والمعرفة برحمته وفضله؛ والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم وقدره المغيب ؛ والتقوى والحساسية واليقظة التى يفرضها الإيمان على قلوب أهله ، فلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى فى ليل أو نهار .

ويقول صاحب المنار : « قال الإمام : إن مناسبة هذا الدعاء للإيمان بالمتشابه ظاهرة على القول بأن المتشابه هو الإخبار عن الآخرة أى : أنهم كما يؤمنون بالمتشابه يؤمنون بمضمونه والمراد منه ، وما يؤول إليه . وأما على القول بأنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم فوجهه أنهم يذكرون يوم الجمع ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يبسلهم فى ذلك اليوم . فهذا الخوف مبعثه الحذر والتوقى من الزيغ . أعاذنا الله منه بمنه وكرمه».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هى قبل كل شىء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريدون أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد ، فإنهم يحاولون أولاً أن يغلبوها على العقيدة .

٢ ـ القرآن هو كتاب هذه الدعوة . هو روحها وباعثها وهو قوامها وكيانها وهو حارسها . وهو الذى يستمد منه الدعاة وسائل العمل ، ومناهج الحركة ، وزاد الطريق .

٣ ـ فائدة إنزال المتشابه من القرآن الابتلاء به ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، وليتعب العلماء قرائحهم فى استخراج معانيه ، وردّه إلى المحكم ، ولترتفع درجات من أراد الله أن يرفع درجاته بالعلم ، وليبقى دائما ـ فى هذا القرآن ما ترتفع إليه الهمم فى كل شؤون الحياة ، فهو خطاب الله الأخير للبشر .

٤ ـ الفرقة الناجية التى تتبع المحكم وتعمل به ، وتؤمن بالمتشابه وتسلم لله فيه مع حملها له على المحكم ، وفهمها له بما لا يتعارض مع المحكم ، مع وجود مواصفات الربانية فيها من إقبال على الله وإخبات له ، وعبادة وافتقار له وهم أهل السنة والجماعة .

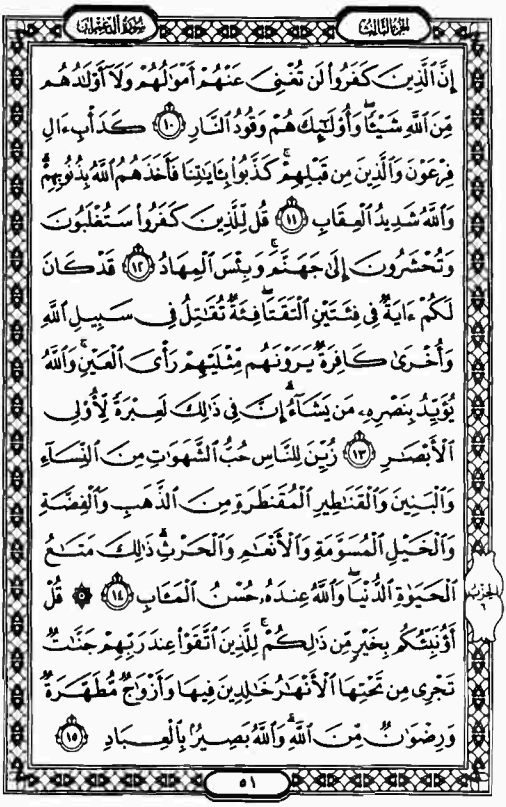
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

معانى الكلمات :

لن تغنى : لن تنفع ولن تدفع . **كدأب** : كعادة وشأن . **بئس المهاد** : بئس الفراش والمستقر . **التقتا** : تقابلتا فى ميدان الحرب (بدر) . **يرونهم مثليهم** : يرى الكافرون المؤمنين مثل عددهم مرتين . **القناطير** : المقصود : المال الكثير . **المقنطرة** : المضاعفة أو المحكمة المحصنة . **المسومة** : المعلمة .

الأنعام : الإبل والبقر والضأن والماعز .

الحرث : الزرع . **حُسن المآب** : المرجع الحسن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مصير الذين كفروا ، وسنة الله الجارية على الكافرين فى كل زمان ومكان .

٢ ـ أن نعرف أن الفطرة التى فطر الله عليها الناس تجعلهم يحبون الشهوات ، ولكن فى غير إسراف ولا مخيلة ، ولا خروج عما جاءت به الشريعة

٣ ـ أن ندرك أن ما أعده الله للذين اتقوا خير من الدنيا وما فيها .

٤ ـ أن نوقظ فى الناس حب القرآن الكريم وما تضمنه من حكمة ومثل وقصة وخير ، وأن نجعل من ذلك زاداً نستعين به على المضى فى طريق الدعوة إلى الله .

المحتوى التربوى :

يتجلى فى هذه الآيات بيان واضح يقرر مصير الذين كفروا ، وسنة الله التى لا تتبدل فى أخذهم بذنوبهم ، وكذلك تهديد الذين كفروا من أهل الكتاب ، والذين يقفون لهذا الدين بالمرصاد ، ويتوعدهم بما رأوه بأعينهم فى غزوة بدر ، من نصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة .

وهذه الآيات واردة فى صدد خطاب بنى إسرائيل، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم، ويختار لهم مثلًا قريبا منهم كانوا هم سببًا فى هلاكه يوم كانوا صالحين وهم فرعون وقومه ، وسيناالهم ما نالهم إن هم سلكوا طريقه ، وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبرى ، وثوابته وسننه الجارية ، ومنها : أن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون ، وينحرفون عن منهج الله ، قائم

فى كل لحظة . ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة ـ ولو قل عددها ـ قائم كذلك فى كل لحظة . وتوقف النصر على تأييد الله الذى يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ وسنة ماضية لم تتوقف .

ويقول صاحب الظلال: « وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ؛ وتثق فى ذلك الوعد ؛ وتأخذ للأمر عدته التى فى طوقها كاملة ؛ وتصبر حتى يأذن الله ، ولا تستعجل ولا تقنط ، إذا طال عليها الأمد المغيب فى علم الله ، المدبر بحكمته ، المؤجل لموعده الذى يحقق هذه الحكمة .

وفى مجال التربية للجماعة المسلمة يكشف لها عن البواعث الفطرية الخفية التى من عندها يبدأ الانحراف ، إذا لم تضبط باليقظة الدائمة ؛ وإذا لم تتطلع النفس إلى آفاق أعلى ؛ وإذا لم تتعلق بما عند الله وهو خيرٌ وأزكى .

إن الاستغراق فى شهوات الدنيا ، ورغائب النفوس ، ودوافع الميول الفطرية هو الذى يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ، ويدفع الناس إلى الغرق فى لجة اللذائذ القريبة المحسوسة ؛ ويحجب عنهم ما هو أرفع وأعلى ؛ ويغلظ الحس ، فيحرمه متعة التطلع إلى ما وراء اللذة القريبة المحسوسة ، ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم فى هذه الأرض ؛ واللائقة كذلك بمخلوق ـ يستخلفه الله فى هذا الملك العريض .

ولما كانت هذه الرغائب والدوافع ـ مع هذا ـ طبيعية وفطرية ، ومكلفة من قبل البارئ ـ جل وعلا ـ أن تؤدى للبشرية دوراً أساسياً فى حفظ الحياة وامتدادها ، فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها ، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها ؛ وإلى أن يكون الإنسان مالكاً لها متصرفاً فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه ؛ وإلى تقوية روح التسامى فيه ، والتطلع إلى ما هو أعلى » .

ومن ثم يعرض النص القرآنى الذى يتولى هذا التوجيه التربوى ، هذه الرغائب والدوافع ، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألواناً من لذائذ الحس والنفس فى العالم الآخر ، ينالها من يضبطون أنفسهم فى هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق فى لذائذها المحببة ، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة .

ويقول صاحب الأساس : « زينت هذه الأشياء للإنسان من أجل أن تعمر الحياة الدنيا ، فإذا استعملها الإنسان ضمن ما حدّده الله ـ عز وجل ـ يكون قد حقق الحكمة من التزيين ، وأرضى الله ، وعمرت الحياة ، ولم تفسد الأرض ، وإذا تجاوز فيها ما حددّه الله ، فسدت الأرض ، وأسخط الله ، ... فحب النساء إذا كان ضمن ما شرع الله ، وبقصد الإعفاف بهن ، وكثرة الأولاد منهنَّ مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه .. وحب البنين إذا كان للتفاخر فهو مذموم ، أما إذا كان لتكثير النسل وتكثير المسلمين فهذا محمود ممدوح وحب المال إن كان للفخر والخيلاء

والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهو مذموم ، وإذا كان للإنفاق فى القربات وصلة الأرحام ووجوه الخير والطاعات فهذا محمود ممدوح شرعًا .

والخيل إن أعدها الإنسان فى سبيل الله فهو مأجور ، أو أعدها للولادة والاستفادة فهو مستور ، وإن أعدها لمحاربة الإسلام فهو مأزور .

وهذه الشهوات التى ذكرتها الآيات هى نموذج لشهوات النفس ، تمثل شهوات البيئة التى كانت مخاطبة بهذا القرآن ؛ ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان ، والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية ، لتبقى فى مكانها هذا لا تتعداه ، ولا تطغى على ما سواه ، فهى متاع الحياة الدنيا فحسب ، ومن أراد الذى هو خير فعند الله ما هو خير ، وفيه عوض من تلك الشهوات ، ولا يناله إلا الذين اتقوا ، الذين كان خوف الله وذكره فى قلوبهم ، وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعًا ، شعورٌ ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات لذا وعدهم بما هو أكبر من كل متاع وهو « رضوان من الله » رضوان يعدل الحياة الدنيا والآخرة .

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ ختم الآية بهذه الجملة للإشعار بأنه ليس كل من ادعى التقوى فى نفسه أو بلسانه يكون متقيا ، وإنما المتقى عند الله هو من يعلم الله منه التقوى ، وفى هذا تنبيه للناس وإيقاظ لمحاسبة نفوسهم على التقوى لئلا يغشهم العجب بأنفسهم فيحسبوها متقية وما هى بمتقية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ تقاس أقدار الناس ومنازلهم عند الله بإيمانهم وأعمالهم لا بأموالهم وأولادهم .

٢ ـ على الداعية أن يتعظ بمصارع الغابرين من المكذبين كآل فرعون والذين من قبلهم .

٣ ـ على الداعية أن يستشعر معية الله ونصره ، وأن يكون على يقين من نصرة هذا الدين ، ولو بعد حين وهلاك الكافرين وسوء مصيرهم .

٤ ـ أن يثق الداعية فيما يدخره الله من نصر وتأييد لأوليائه يمدهم به إذا توافرت فيهم أسبابه ودواعيه سنة الله بلا تبديل .

٥ ـ ألا يغيب عن ذهن الداعية لحظة مشاهد اليوم الآخر ، وما ينتظر العباد بين يدى ربهم من جزيل عطائه أو أليم سخطه .

٦ـ إن نظرة الإسلام للشهوات تزيل عن أذهان الناس ـ وبخاصة أعداء الإسلام ـ ذلك الضلال الذى ران على قلوبهم ، فاتهموا الإسلام بأنه يحرم الناس من متع الحياة ، واتهموا المسلمين بالجمود والانعزال عن الحياة ، والتطرف والمعاداة لكل ما هو جديد !!!

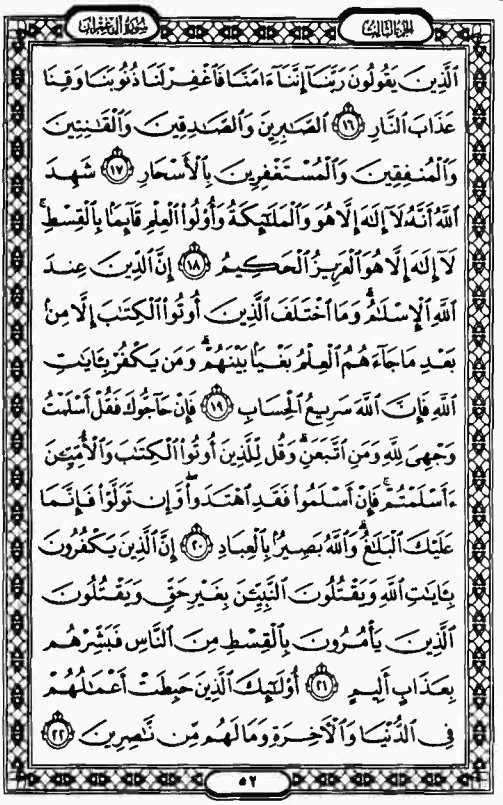
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ
ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾
٥٢

معانى الكلمات :

قِنا : احفظنا . **القانتين** : المطيعين ، الخاضعين لله تعالى . **الأسحار** : فى أواخر الليل إلى طلوع الفجر . **شهد الله** : بين وأعلم . **قائماً بالقسط** : مقيماً بالعدل . **أوتوا الكتاب** : أصحاب الديانات السماوية السابقة .

بغياً بينهم : حسداً كائناً بينهم .

حاجوك : جادلوك .

أسلمت وجهى لله : أخلصت نفسى وعبادتى لله . **تولوا** : أعرضوا . **بالقسط** : بالعدل .

حبطت أعمالهم : فسدت ، ولم تُقبل ، ولم يكن لها ثمرات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف حال المتقين مع ربهم الذى استحقوا عليه هذا الثواب .

٢ ـ أن نتعرف على الكيفية التى عرضت بها حقيقة التوحيد لله تعالى .

٣ ـ أن نحدد مزاعم أهل الكتاب وشبهاتهم .

٤ ـ أن نعلم أن تقوى الله لا تُدَّعَى ؛ لأن لصاحبها صفات معروفة ، ولأن تحليه بهذه الصفات يطبعه بطابع يعرف به بين الناس ، فضلا عن معرفة الله تعالى بدخائله ، ليثيب من اتقاه ، ويعاقب من عصاه .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات التالية حال المتقين مع ربهم ، الحال التى استحقوا عليها هذا الرضوان ، نفى كل صفة من صفاتهم تحقق سمة من سمات الإيمان ذات قيمة فى حياة الإنسانية ، وفى حياة الجماعة المسلمة التى تتربى على التقوى والإيمان .

ففى دعائهم ما ينم عن تقواهم . فهو إعلان للإيمان ، وشفاعة به عند الله ، وطلب للغفران وتوق من النيران ، وفى صبرهم ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى ، وثبات على تكاليف

الدعوة ، وأداء لتكاليف الحق ، وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الأمر ، وقبول لحكمه ورضاء . وفى صدقهم اعتزاز بالحق الذى هو قوام الوجود ، وترفع عن الضعف ، فما الكذب إلا ضعف عن كلمة الحق ، اتقاء لضرر أو اجتلاباً لمنفعة . وفى قنوتهم أداء لحق الألوهية ، وواجب العبودية ، وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت لله ، الواحد الذى لا قنوت لسواه .

وكذلك من صفات هؤلاء المتقين الإنفاق الذى هو تحرر من استذلال المال ؛ وانفلات من ربقة الشح وإعلاء لحقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية ؛ وتكافل بين الناس يليق بعالم يسكنه الناس !

وكذلك الاستغفار الذى تترقرق فيه خواطر النفس وخوالجها الحسية أو تتلاقى فى الأسحار روح الإنسان وروح الكون فى الاتجاه لبارئ الكون وبارئ الإنسان هؤلاء الصابرون ، الصادقون ، القانتون ، المنفقون ، المستغفرون بالأسحار .. لهم ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ .

يقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : وصف أهل التقوى بشأن من شؤونهم . وهو أنهم لتأثر قلوبهم بالتقوى التى هى ثمرة الإيمان تفيض ألسنتهم بالاعتراف بهذا الإيمان فى مقام الابتهال والدعاء.. ومن صفاتهم الصبر ، وأكمل أنواعه الصبر على ملازمة الشريعة فى المنشط والمكره ، فعندما تهب زوابع الشهوات فتزلزل الاعتقاد بقبح المعاصى وسوء عاقبتهايكون الصبر هو الذى يثبت الإيمان،ويقف بالنفس عند الحدود المشروعة ؛ لذلك قرن الأمر بالتواصى بالحق بالأمر بالتواصى بالصبر فى سورة العصر ، والحق هو المقصود الأول من الدين ، وهو لا يقوم إلا بالصبر . وكما يحفظ حقوق الناس أن تغتالها أيدى المطامع » .

وبعد وصف حال المتقين مع ربهم ينتقل السياق إلى تقرير حقيقة التوحيد : كما **يقول صاحب الظلال** : « توحيد الألوهية والقوامة ، وتوحيد الكتاب والرسالة ، وحقيقة التوحيد تستلزم مصدقاً لها فى واقع الحياة البشرية ؛ ليرتب عليها آثارها الملازمة لها ، فيبدأ بشهادة الله ـ سبحانه ـ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، وهى مسوقة هنا ؛ ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها ؛ وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، الممثلة فى الإسلام بمعنى الاستسلام ، لا اعتقاداً وشعوراً فحسب ، ولكن كذلك عملاً وطاعة واتباعاً للمنهج العملى الواقعى فى طاعتهم لأوامر الله وحدها ، والتلقى عن الله وحده ، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال، متى ثبت لهم أنها من عنده ».

ويضمن هذه الشهادة حقيقة قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ، فهو لا يقبل ديناً سواه من أحد ، الإسلام الذى هو الاستسلام والطاعة والاتباع ، وإذن فليس الدين الذى يقبله من الناس هو مجرد تصور فى العقل؛ ولا مجرد تصديق فى القلب ، إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور ، هو تحكيم منهج الله فى أمر العباد كله ، وطاعتهم لما يحكم به ، واتباعهم لرسوله فى منهجه .

ويقول صاحب الأساس : « فإذا كان هو الشأن فكل مناقشة فى الإسلام ظالمة ؛ ومن ثم فإن على رسول الله ﷺ والمسلمين أن يعلنوا إسلامهم لله أمام أى حجاج ، وأن يدعوا غيرهم إلى الإسلام ؛ ثم يقرر الله ـ عز وجل ـ أن الكافرين إن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن أعرضوا ، فليس على الرسول من إثمهم شىء إذا أدى الرسالة والله مطلع عليهم ، وعلى أعمالهم وأعمال عباده كلهم وسيجازيهم .

وتلفت الآيات بعد ذلك انتباه النبى ﷺ وأتباعه من بعده إلى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قوم لا خلاق لهم ولا يوثق بعهودهم ، فلقد قتلوا الأنبياء وخانوا العهود ، وأمر رسوله ﷺ أن يبشر هؤلاء بالعذاب الأليم ، وبحبوط العمل فى الدنيا والآخرة ، وأنهم لا ناصر لهم ، لما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح قال : « قلت يارسول الله : أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجلٌ قتل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من بنى إسرائيل ، فأمروا من قتلهم بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر ، فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل .

يقول صاحب الظلال :« الحبوط : هو انتفاخ الدابة التى ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها .. وهكذا أعمال هؤلاء ـ الذين كفروا بآيات الله ـ قد تنتفخ وتتضخم فى الأعين ، ولكنه الانتفاخ المؤدى إلى الهلاك ! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أهمية استقرار عقيدة التوحيد فى النفوس ؛ لما تحدثه من حرص على التلقى عن الله واتباع منهجه .

٢ ـ إن الدين عند الله الإسلام ؛وكل ما عداه من دين أو نظام أو منهج،ليس مقبولاً عند الله، وليس قادراً على هداية البشرية ، ويجب علينا أن ندعوا الأمة ونجمعها على هذا الدين لتخرج مما هى فيه من تيه وضلال .

٣ ـ على الدعاة أن يوقنوا أن جولة الباطل ساعة وإن ساد وانتفش ، ودولة الحق إلى قيام الساعة وإن غاب وانطمس ، وحسب الدعاة شرفاً أنهم سائرون فى ركب الأنبياء .

٤ ـ الإيمان قولٌ واعتقادٌ وعمل ، وليس مجرد تصور فى العقل ، أو تصديقًا فى القلب فقط ، والإسلام كذلك استسلام وطاعة واتباع ، وليس ادعاء فقط .

٥ ـ لا استقامة لعمل ، ولا وصول إلى نجاح أو فلاح فى دعوة أو حركة أو تربية أو تمكين لدين الله إلا مع الإيمان بالله ودعائه ، واللجوء إليه ، وطلب مغفرة الذنوب منه .

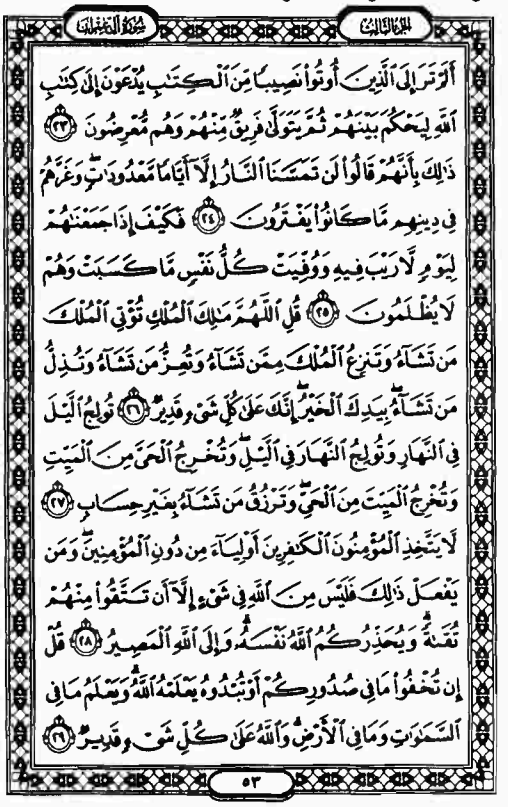

معانى الكلمات :

الذين أوتوا نصيباً من الكتاب : اليهود .

يفترون : يكذبون على الله . **لا ريب فيه** : لا شك فيه . **تولج الليل** : تدخله (تعاقب الليل والنهار) . **بغير حساب** : بلا نهاية لما تعطى . **أولياء** : أعواناً وأنصاراً .

تتقوا منهم تقاة : تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه . **يحذركم** : يخوفكم غضبه وعقابه . **تبدوه** : تظهروه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف كيف ردت الآيات على مزاعم وشبهات أهل الكتاب .

٢ ـ أن ندرك حقيقة الألوهية الواحدة من خلال الآيات .

٣ ـ أن نفهم حقيقة الإيمان الحق والولاء والبراء كما ورد فى الآيات .

٤ ـ أن نبتهل إلى الله بالدعاء بهذه الآيات ونحقق بها الإيمان .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات مشهداً يتعجب الله فيه من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم ـ لا كلهم ـ عن الاحتكام إلى كتاب الله فى أمور الاعتقاد وأمور الحياة . فكيف بمن يقولون : إنهم مسلمون ، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها . ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون ! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضاً كى يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم . فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام ، حين يعرض فريق منم عن التحاكم إلى كتاب الله ، فكيف يكون الاستنكار إذا كان « المسلمون » هم الذين يعرضون هذا الإعراض .. إنه العجب الذى لا ينقضى ، والبلاء الذى لا يُقدر ، والغضب الذى ينتهى إلى الشقوة والطرد من رحمة الله ! والعياذ بالله !

ثم يكشف الله عن علة هذا الموقف المتناقض : إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة ، وجدية القسط الإلهى الذى لا يحابى ولا يميل ، ويضاف إلى هذا الانحراف التميع فى تصور الجزاء والعدل ، فهم مفترون فى دينهم ومفترون على ربهم فلقد اعتقدوا بأن النار لن تمسهم إلا

أياماً معدودات **ويعلق صاحب الظلال** على موقفهم هذا قائلاً : « حقاً إنه لا يجتمع فى قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله ، والشعور بحقيقة هذا اللقاء . مع هذا التميع فى تصور جزائه وعدله ..

وحقاً لا يجتمع فى قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ، وتحكيمه فى كل شأن من شؤون الحياة .

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون ، ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون . وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ، ويزعمون أن الحياة الدنيا دنيا لا دين ! وأن لا ضرورة لإقحام الدين فى حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية بل والعائلية . ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون ! ثم يعتقد بعضهم فى غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيراً من المعاصى ، ثم يساقون إلى الجنة ! أليسوا مسلمين ؟ إنه نفس الظن الذى كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل له فى الدين.. وهؤلاء وأولئك سواء فى تنصلهم من أصل الدين ، وتملصهم من حقيقته التى يرضاها الله.. الإسلام .. الاستسلام والطاعة والاتباع . والتلقى من الله وحده فى كل شأن من شؤون الحياة » .

وينتقل بنا السياق ليقوم وجهتنا على طريق الاتباع الكامل ، والتسليم الكامل لآيات الله ، والمفاصلة الكاملة لأعداء الله ، والإخبات لله ، وهذا كله يقتضى معرفة كاملة بالله ، فيقول تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ أن يكون معظماً لربه وشاكراً ومفوّضاً أمره إليه ومتوكلاً عليه ، ومعترفاً بأن الملك كله له يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، فهو المعطى وهو المانع والمتصرف فى خلقه بما يشاء ، والفعال لما يريد بيده الخير كله ، وهو القادر على كل شىء. ومن مظاهر قدرته ، تعاقب الليل والنهار فنرى هذا يزيد وهذا ينقص على منتهى الدقة والكمال ومن مظاهر قدرته رزق من شاء ، كما شاء . ثم نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرُّون إليهم بالمودة ، وبين جل جلاله أن من يرتكب نهى الله هذا ، فقد برئ من الله إلا من خاف فى بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه وقلبه . ثم حذرنا الله نقمته فى مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه. ثم إن إليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله .

ويؤكد صاحب الظلال على ضرورة استبراء الضمائر من الميل القلبى للكافر فيقول : « ولما كان الأمر متروكاً للضمائر فى هذه الحالة ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب ، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه فى صورة عجيبة حقاً : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وإذا علمنا من خلال سياق الآيات السابقة أن الأمر كله لله ، والرزق كله بيد الله ، والقوة كلها له سبحانه .. فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله ؟ ! وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً

فضلاً عن أن يستطيعوا هذا لغيرهم . ومن هنا جاء هذا التحذير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضى تحكيم كتاب الله فى الحياة . سواء كانت الموالاة مودة الغلب أو بنصره أو باستنصاره ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ لا فى صلة ولا نسبة ولا دين ولا عقيدة ويرفض فقط التقية باللسان ، لا ولاء القلب ولا ولاء العمل قال ابن عباس رضى الله عنهما : « ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان » .

ويقول صاحب المنار : قال : الأستاذ الإمام : « نبه الله النبى والمؤمنين إلى الالتجاء إليه معترفين أن بيده الملك والعز ومجامع الخير والسلطان المطلق فى تصريف الكون يعطى من يشاء ويمنع من يشاء . فإذا كانت العزة والقوة له عز وجل شأنه فمن الجهل والغرور أن يغتر بغيره من دونه ، وأن يلتجأ إلى غير جنابه ، أو يذل المؤمن فى غير بابه .. » .

ويقول صاحب الظلال عن الدعاء الوارد فى الآيات إنه : « نداء خاشع .. فى تركيبه اللفظى إيقاع الدعاء وفى ظلاله المعنوية روح الابتهال وفى التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر فى رفق وإيناس .. وفى جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمور الناس ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة ، حقيقة الألوهية الواحدة القوامة على الكون والناس وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلا طرفاً من شأن الكون الكبير الذى يصرفه الله ، وأن الدينونة لله وحده هى شأن الكون كله كما هى شأن الناس . وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِىَ به أجاب فى هذه الآية من آل عمران : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية .

٢ ـ على المسلم أن يوقن بأن قدرة الله لا يقف أمامها عائق ولا يحدها حدود ، وأن كل ملك وجبروت وسلطان ما سوى الله فهى عارية مستردة ، فيجب أن نركن إلى جناب الله ، ولا ترهبنا قوة ، ولا يخيفنا بطش ، ولا نغتر بعافية .

٣ ـ أن الولاء والمودة والنصر لا تكون إلا لله وللرسول وللمؤمنين .

٤ ـ من الإعراض عن الدين والكفر به رفض التحاكم إليه وعزله عن الدنيا . قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء) .

٥ ـ ليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن والكافر : « وليس التقية بالعمل وإنما التقية باللسان » .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

معانى الكلمات :

محضراً : مشاهداً لها فى صحف الأعمال .

تود : تتمنى . **أمداً بعيداً** : زمناً بعيداً .

اصطفى : اختار . **على العالمين** : على عالمى زمانهم . **محرراً** : مخلصاً مفرغاً لعبادتك .

مريم : معناها فى لغتهم : العابدة خادمة الرب. **أعيذها** : أجيرها وأحصنها بك .

أنبتها نباتاً حسناً : رباها تربية كاملة .

كفلها : جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها .

المحراب : غرفة العبادة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن طاعة الله ورسوله واجب شرعى ، لا يكون إيمان ولا إسلام إلا بها .

٢ ـ أن نعلم أن المعصية والتولى عن الله ورسوله كفر صريح يستحق صاحبه عقاب الكافرين.

٣ ـ أن نعلم أن الإقبال على الله بالطاعة والإنابة والتقرب إليه بصالح الأعمال هو التوفيق والخير والهدى .

٤ ـ أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن قدرة الله لا تقف دونها حوائل ، ولا تتوقف على أسباب .

المحتوى التربوى :

بعد أن أمعن الله فى التحذير من نفسه ، واستجاش الخشية فى قلوب عباده اتقاء التعرض للنقمة التى تدعمها قدرة الله وعلمه حيث لا ملجأ منها ولا نصرة ! تتابع الآيات استجاشة القلوب وتحريك جمودها باستحضار اليوم المرهوب الذى لا يند فيه عمل ولا نية ؛ والذى تواجه كل نفس فيه برصيدها الكامل من الأعمال ، ويواجه رصيده راجياً لو أن بينه وبين السوء الذى عمله أمداً بعيداً . ومع تكرار التحذير يذكرهم رحمته لإتاحة الفرصة لمن يريد التوبة والإنابة وهذا دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد .

ويحسم هذا الدرس ببيان حقيقة الإيمان ، وحقيقة الدين . ويفرق تفريقاً حاسماً بين الإيمان والكفر فى جلاء لا يحتمل الشبهات وفى هذا يقول صاحب الظلال : « إن حب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياماً بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه فى الحياة . وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام . ولكنه طاعة لله وللرسول ، وعمل بمنهج الله الذى يحمله الرسول ..

يقول ابن كثير تعليقاً على هذه الآية (٣٣) : « هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأعماله ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

ويقول ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد : « ومن تأمل فى السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق،فلم تدخلهم هذه الشهادة فى الإسلام .. علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط . بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً » .

وينتقل بنا السياق لدرس جديد يبدأ ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة ؛ ليكونوا طلائع الموكب الإيمانى فى شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون. ويعلى من نسب العقيدة فيجعله فوق نسب الذرية ، ويقرر أن نسب هذه العقيدة هو الذى يصل ذلك الموكب الإيمانى الكريم ، وتربطه آصرة الاصطفاء والاختيار الإلهى ؛ وإن كان نسب الجميع يلتقى فى آدم ونوح .

وبعد هذا الإعلان التمهيدى يدلف إلى آل عمران ومولد مريم وقصة النذر الذى صدر من قلب يعمره الإيمان الذى نذر أعز ما يملك خالصاً له ، محرراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه ، ويقول صاحب الظلال : « وهنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر . فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غيرالله بشىء ما فى ذات نفسه ، أو فى مجريات حياته ، أو فى الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التى تصرف هذه الحياة .. لا تحرر وفى قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله . وفى حياته شريعة أو قيم أو موازين فاسدة مستمدة من غير الله ، وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر فى عالم الإنسان » .

وبعد هذا النذر الخالص لله وضعتها أنثى ، واتجهت إلى ربها كأنها معتذرة أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بخدمة الهيكل ، والنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان ، ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الرجل وهنا **يقول صاحب الأساس** : « فى قوله تعالى على لسان أم مريم : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ قاعدة عظيمة : فالأنثى ليست كالذكر فى تركيبها الجسمى ، ولا فى تركيبها النفسى ،

ومن ثم فلابد أن تكون وظيفتها الحياتية تختلف عن وظيفة الرجل ، ولابد أن يترتب على ذلك اختلاف فى المسؤوليات ، واختلاف فى الحقوق والواجبات ، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء ، فليسوِّ بينهما فى التركيب الجسمى والنفسىِّ أولاً ثمَّ فليطالب » .

وعندما نعيش فى ظلال هذه الآيات نحس حالة من الود والقرب والمناجاة فى بساطة ويسر وثقة كما **يقول صاحب الظلال** : « وهى نموذج للعبد الواثق من معية الله ونصره وتوفيقه ، وكذلك ترسم صورة لنمط حياة هؤلاء العباد الذين اصطفاهم الله مع ربهم فى بساطتها وعفويتها وأنسها فتدعو لها بحفظ الله ورعايته من الشيطان هى وذريتها ، ولأن الله سبحانه وتعالى يعلم صدقها وإخلاصها فقد تلقى ابتهالها بالقبول الحسن ، وأنبتها نباتاًحسناً ، وأعدها إعداداً ربانياً ؛ لتستقبل نفخة الروح وكلمة الله كى تلد عيسى عليه السلام وجعل كفالتها عند نبيه وزوج خالتها زكريا عليه السلام ، ونشأت مباركة ، يهيئ الله لها رزقاً من فيوضاته وعطائه ، وكما **يعلق صاحب الظلال** : ولا نخوض نحن فى صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة ، فيكفى أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً . حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبى ـ من فيض الرزق فيسألها : كيف ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد أن تقول فى خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله ، وتفويض الأمر إليه كله ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

وهى كلمة تصور حال المؤمن مع ربه ، واحتفاظه بالسر الذى بينه وبينه . والتواضع فى الحديث عن هذا السر لا التنفج به والمباهاة! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التى تثير عجب نبى الله زكريا هى التمهيد للعجائب التى تليها فى ميلاد يحيى وميلاد عيسى عليهما السلام.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن كل إنسان سوف يجد يوم القيامة أمامه ما قدّم من عمل ؛ ليحاسب عليه ويجازى به، ولا يجدى عندها الأمنيات ولا ينفع الندم .

٢ ـ أن ادّعاء حب الله تعالى ليس مجرد دعوى لا يصحبها عمل ، وإنما حب الله تعالى له دلائل وعلامات أولها اتباع الرسول ﷺ والالتزام بما جاء به ، وأن طاعة الله ورسوله هى دليل الإيمان، والمعصية طريق الكفر والله لا يحب الكافرين .

٣ ـ أن الصلاح والتقوى والاستقامة على أمر الله ومنهجه هى التى تؤهل الإنسان ليكون موضع رضا الله واختياره وتفضيله . وإن الإقبال على الله بالطاعة والإنابة والتقرب إليه بصالح الأعمال هو التوفيق والخير والهدى .

٤ ـ أن الدعاء إلى الله وسؤاله والطلب منه من أفضل القربات ومن أمضى الأسلحة التى يجب أن نتسلح بها ، والله سبحانه وتعالى يحب الذين يدعونه ويلحون عليه فى الدعاء .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ
يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ
اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ
كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ
قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر
رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ
عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي
وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

معانى الكلمات :

هنالك : فى ذلك الوقت . **هب لى من لدنك** : أعطنى من عندك . **حصوراً** : يمنع نفسه عن الشهوات عفة وزهداً . **عاقر** : عقيم لا تلد . **ثلاثة أيام إلا رمزاً** : إلا الإشارة . **اقنتى** : أخلصى العبادة .

يلقون أقلامهم : يطرحون سهامهم لعمل قرعة . **يختصمون** : يتنازعون فيمن يكفلها منهم . **بكلمة منه** : هى كلمة «كن» من غير واسطة أب . **وجيهاً** : سيداً معظماً له جاه وقدر ومنزلة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أهمية الدعاء فى حياة الدعاة وأنه مخ العبادة .

٢ ـ أن نعرف أن الثروة الحقيقية للدعاة والزاد الذى يجب أن نتزود به هو ذكر الله تعالى فى كل حين بالعشى والإبكار .

٣ ـ أن نوقن أن قدرة الله لا تقف دونها حوائل ولا تتوقف على أسباب .

٤ ـ أن نعلم أن نعم الله يجب أن تقابل بشكره سبحانه .

المحتوى التربوى :

بعد أن تحدثت الآيات عن الفيض الإلهى على مريم عليها السلام ومطلق قدرته فى جريان الأسباب وتقدير الأشياء تاقت نفس زكريا إلى الرغبة فى الذرية ، وهى رغبة وفطرة فطر الله الناس عليها لحكمة عليا فى امتداد الحياة وارتقائها .

وبعد أن مهد الله لطلاقة القدرة يسوق لنا مظهرًا جديداً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية ، وعدم تقيدها بالمألوف للبشر ، الذى يحسبه البشر قانوناً لا سبيل إلى إخلافه ، ومن ثم يشكون فى كل حادث لا يجىء فى حدود هذا القانون ! فها هو ذا « زكريا » الشيخ الكبير وزوجه العاقر التى لم تلد فى صباها تجيش فى قلبه الرغبة الفطرية فى الولد ، فيتوجه إلى ربه يناجيه ويطلب منه أن

يهب له من لدنه ذرية طيبة فكانت الاستجابة التى لا تتقيد بسن ، ولا تتقيد بمألوف الناس؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التى تفعل ما تريد .

ويقول صاحب الظلال : « لقد استجيبت الدعوة ، ولم يحل دونها مألوف البشر الذى يحسبونه قانوناً . ثم يحسبون أن مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون ! وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً ـ لا مطلقاً ولا نهائياً ـ فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة ، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه ، أن يصل إلى قانون نهائى ولا أن يدرك حقيقة مطلقة أجدر الإنسان أن يتأدب فى جناب الله ، وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله فلا يخبط فى التيه بلا دليل ، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل ، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن علمه القليل! » .

ويقول صاحب المنار : «قال الأستاذ الإمام : إن زكريا لما رأى ما رآه من نعمة الله على مريم فى كمال إيمانها وحسن حالها ولا سيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الأسباب ، ورؤيتها أن المسخر لها هو الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه ، وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته ، وإنما يكون الدعاء جديراً بأن يستجاب إذا جرى به اللسان بتلقين القلب فى حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب ، ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة ، وقد أوذن بسماع ندائه ، واستجابة دعائه ، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة ، وهى على غير السنة الكونية فأجابه بما أجابه .. » ، قلت : وهذا من أدق القول وألطفه » .

وبعد التمهيد بهذه المعجزة والبشارة بميلاد يحيى ﷺ جاءت قصة مريم مع معجزة ميلاد عيسى ﷺ أشد غرابة وأعظم إعجازاً وتدور الآيات حول بعض الدلالات :

١ ـ اصطفاء مريم دلالة صدق وآية يقين بنبوة الرسول ﷺ الذى خوطب بهذا الوحى .

٢ ـ الإخبار بإلقاء الأقلام لكفالة مريم إعجاز حيث لم يكن يعلم بذلك إلاخاصة الأحبار .

٣ ـ ميلاد عيسى ﷺ بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله . والمسيح هو الكلمة وهو نفخة من روح الله . أودع بكلمة « كن » فى رحم تلك الفتاة الطاهرة مريم ومن ثم فلا معارضة بين كونه نفخة من روح الله وأنه كلمة ، فهو نفخة ألقاها بكلمة « كن فيكون » أما طبيعة سرها فهذا غيب اختص الله سبحانه وتعالى بعلمه والبحث فيه غير ذى فائدة.

ويعلق صاحب الظلال على هذه المعجزة قائلاً : « وهنا تظهر عظمة هذا الدين ، ويتبين مصدره عن يقين فها هو محمد ﷺ رسول الإسلام الذى يلقى من أهل الكتاب ـ ومنهم

النصارى ـ ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات .. ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على « نساء العالمين » بهذا الإطلاق الذى يرفعها إلى أعلى الآفاق . وهو فى معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبالدين الجديد ـ أى صدق ! وأية عظمة ! وأية دلالة على مصدر هذا الدين وصدق صاحبه الأمين !! » .

إن البشارة بعيسى عليه السلام وكونه كلمة ونفخة من روح الله ، من أمور الغيب التى لا مجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد ، والسؤال عن هذه النفخة ؟ وكيف تنفخ فى الموات فينشأ فيه هذا السر الخافى على الأفهام لا يجدى شيئاً فى وظيفة الإنسان الذى خلق للاستخلاف فى الأرض ـ إن الإنسان لن يخلق حياة من موات .. فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة ، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة الذى سارت فيه السلالة الحية ؟

ويقول صاحب الظلال : « كل هذه وغيرها فى هذا الشأن بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات وخلاصتها هى تلك : أن الله شاء أن ينشئ حياة على غير مثال ، فأنشأها وفق إرادته الطليقة التى تنشئ الحياة بنفخة من روح الله . ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها . ويجب أن نجهلها. لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة فى الأرض ، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلاً فى تكليف الاستخلاف ! والأمر هكذا سهل الإدراك . ووقوعه لا يثير الشبهات » !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن إنعام الله على عبده واستجابته سبحانه لدعائه ، ليس معناه أن العبد المنعم عليه له أن يتوقف عن ذكر الله وشكره ، وإنما يستوجب ذلك الاستمرار فى ذكر الله كثيراً ، وتسبيحه باستمرار أى بالعشىّ والإبكار ، ومعنى ذلك أن ذكر الله تعالى مطلب عام من كل الناس وعلى كل حال .

٢ ـ الاصطفاء يقوم على أساس الإيمان والعمل الصالح ، ويصحبه توفيق من الله تعالى وتأييد، وإظهار كرامات، وتحقيق نصر بإذن الله تعالى .

٣ ـ إن القنوت والتذلل لله هو الزاد الذى يمد الدعاة بالعون والتوفيق ، ويهيئ لهم من النجاح والفلاح الذى يحقق الأهداف ؛ إذ هم بهذه العبادة أقرب ما يكونون إلى الله ، والله تبارك وتعالى باصطفائهم أقرب ما يكون إليهم ، وحسب المؤمن أن يكون قريباً من الله ليجد العون والمدد والتوفيق .

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

معانى الكلمات :

فى المهد : قبل أوان الكلام حينما كان فى زمن رضاعته . **لم يمسسنى بشر** : لم أتزوج ولم أرتكب الفاحشة . **قضى شيئاً** : أراد شيئاً أو أحكمه وحتمه . **الكتاب** : الخط باليد كأحسن ما يكون . **الحكمة** : الصواب فى القول والعمل . **أبرئ الأكمه والأبرص** : أشفى الذى ولد أعمى والمصاب بالبرص . **الحواريون** : أنصار عيسى عليه السلام وأتباعه . **مسلمون** : منقادون لرسالتك ، مخلصون فى نصرتك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم ضرورة الأخذ بالأسباب وضرورة مواجهة الناس بما يقنعهم ويدخل فى مجال ما يعقلون .

٢ ـ أن نعلم أن أنبياء الله جميعاً دينهم واحد ودعوتهم واحدة ، لأنهم جميعاً يدعون للإيمان بالله الواحد وعبادته وفق ما شرع .

٣ ـ أن نعلم أن أعداء الرسل وأعداء الحق لا يتوقفون عن المكر والتربص بالحق وأهله ، ولكن الله يرد كيدهم ويخيب مسعاهم .

المحتوى التربوى :

تتحدث هذه الآيات عن تفاصيل البشارة التى بشرت بها الملائكة مريم عليها السلام فتضمنت البشارة نوعه ، واسمه ونسبه . وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه .. ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه : ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ ، .. ولمحة من مستقبله : ﴿ وَكَهْلًا ﴾.. وسمته والموكب الذى ينتسب إليه : ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها أى فتاة . واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان ، وجاءها الجواب ، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود : قال : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .. وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب ، وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب » .

وأخبرت الآيات الكريمة عن صفات خمس فى المسيح عليه السلام هى مؤهلات نبوته ودلائل اصطفائه ضمن ركب الأنبياء وهى يعلمه الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والإنجيل ورسول الله لبنى إسرائيل يحمل من الأدلة والبراهين والمعجزات ما من شأنه أن يقنع الناس ، ومع الخمس صفات وهبه خمس معجزات وهى : أنه يصور من الطين على هيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً على وجه الحقيقة ، وذلك خارق لما اعتاده الناس من عادات ولكنه يتم على يديه بإذن الله تعالى . وكذلك يبرئ الأكمه ـ وهو الأعمى من عماه ـ فيبصر بإذن الله تعالى ، كأن لم يكن أعمى من قبل ، وكذلك يبرئ الأبرص ـ وهو بياض يصيب الجسد لمرض ـ بإذن الله تعالى ، فيذهب برصه ، وكان يحيى الموتى بإذن الله تعالى ، وكان يخبر عن الغيب ، وما يخفيه الناس وما يدخرونه فى بيوتهم .

ويقول صاحب الظلال : « وهذه المعجزات فى عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها ، أو رد العافية وهى فرع عن الحياة . ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية .. وهى فى صميمها تتسق مع مولد عيسى عليه السلام ومنحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم عليه السلام .. ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التى نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسان الله ـ سبحانه ـ بمألوف الإنسان ! » .

ويختتم السياق دعوة عيسى عليه السلام بكشف حقائق أصيلة فى طبيعة دين الله ، وفى مفهوم هذا الدين فى دعوة الرسل جميعاً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من كونها مصدقة لبعضها ومتممة لغيرها من الشرائع مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم ، وكان تحريمه فى صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات ، ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام ، فيُحل لهم بعض الذى حُرّم عليهم .

ويقول صاحب المنار : « انتقلت الآيات من البشارة بعيسى إلى ذكر خبره مع قومه وطُوىَ ما بينهما من خبر ولادته ونشأته وبعثته مؤيدا بتلك الآيات وهذا من إيجاز القرآن الذى انفرد به . فقد انطوى تحت قوله : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾ جميع مادلت عليه البشارة وعلم أنه

وُلد وبُعث ودَعَا وأيد دعوته كما سبقت الإشارة ، فأحس وشعر من قومه، وهم بنو إسرائيل الكفر والعناد والمقاومة والقصد بالإيذاء ، وفى هذا من العبرة والتسلية للنبى ﷺ ما فيه ، وأن أكبر ما فيه الإعلام بأن الآيات الكونية وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتما وإنما كون الإيمان باستعداد المدعو إليه وحسن بيان الداعى ؛ ولذلك كان من أمر عيسى أنه لما أحس من قومه الكفر : ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أى توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه فى دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها عما كانوا فيه متحيزين ومنزوين إلى الله منصرفين إلى تأييد رسوله ونصره خاذلين أعداءه من الكافرين ... والنصر لا يستلزم القتال فالعمل بالدين والدعوة إليه نصر له » .

ويقول صاحب الظلال : « ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؟ .. من أنصارى إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه ؟ من أنصارى إلى الله لأبلغ إليه ، وأؤدى عنه ؟ ولابد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه ، ويحملون دعوته ، ويحامون دونها ، ويبلغونها إلى من يليهم ، ويقومون بعده عليها ..

﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

فذكروا الإسلام بمعناه الذى هو حقيقة الدين ، وأشهدوا عيسى عليه السلام على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله .. أى نصرة رسوله ودينه ومنهجه فى الحياة » .

ويقول صاحب المنار فى شهادة الحواريين بالإسلام : « وفى هذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبى وإن اختلفوا فى بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن عصر المعجزات قد انقضى بخاتم الرسل محمد ﷺ وأن الدعاة إلى الله لم يبق لهم من وسائل التأييد إلا الكرامات ، بشرائطها الشرعية من إيمان وإسلام وإخلاص ، وصلاح للباطن والظاهر وتقوى الله على كل حال .

٢ ـ مع اليقين بأن الأمور كلها بيد الله تعالى ، وأن الثقة فى تأييد الله ونصره لعباد المؤمنين العاملين الصالحين ، ما ينبغى أن تتزعزع مهما أبطأ النصر ، وأن مع الإيمان والعمل الصالح ينبغى الأخذ بكل ما يتاح من الأسباب .

٣ ـ على الدعاة إلى الله ألا تقنطهم كثرة الضالين والمفسدين فتقعدهم عن العمل والجهاد فى سبيل الله مهما تكن العقبات التى يضعونها فى الطريق للتمكين لهذا الدين .

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾
ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ
أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾
٥٧

معانى الكلمات :

مع الشاهدين: مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق . **متوفيك** : آخذك وافيا بروحك وبدنك . **ورافعك إلى** : ورافعك إلى السماء .**الممترين** : الشاكين فى أنه الحق . **حاجك فيه** : جادلك فى أمره .

تعالوا : هلموا نجتمع ، وأقبلوا بالعزم والرأى . **نبتهل** : نتضرع إلى الله داعين باللعنة على الكاذب منا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن يعرف الدعاة الخصائص التى يجب أن يتصف بها الداعية كما وردت بالآيات .

٢ ـ أن نعرف العلاقة بين خلق آدم وعيسى عليهما السلام .

٣ ـ أن نتعرف على صور من مكر أهل الباطل وكيف رد الله هذا المكر .

٤ ـ أن نعلم الكيفية التى لقنها الله لرسوله ﷺ لمواجهة أكاذيب أهل الكتاب فيما يخص مولد عيسى عليه السلام وعبوديته لله تعالى .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات الحديث عن إسلام الحواريين وإيمانهم بعيسى عليه السلام ودعائهم لله بأن يكتبهم مع الشاهدين ، فبعد أن أكدوا النصرة لدين الله اتجهوا إلى ربهم لتوثيق هذه البيعة وفى هذا يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « وفى هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة .. إن عهد المؤمن هو ابتداء مع الله ، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد ، وانعقدت البيعة مع الله ، فهى باقية فى عنق المؤمن بعد الرسول .. وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول.فليس الأمر مجرد عقيدة فى الضمير ؛ ولكنه اتباع لمنهج ، والاقتداء فيه بالرسول».

وفى دعاء الحواريين : ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وقفة للتأمل والنظر فأى شهادة وأى شاهدين؟ يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدى

شهادة لهذا الدين شهادة تؤيد حق هذا الدين فى البقاء ؛ وتؤيد الخير الذى ـ يحمله هذا الدين للبشر .. وهو لا يؤدى هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً ، يشهد لهذا الدين بالأحقية فى الوجود ، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما فى الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات .

وهو لا يؤدى هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ، ونظام مجتمعه ، وشريعة نفسه وقومه . فيقوم مجتمع من حوله ، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهى القويم ... وجهاده لقيام هذا المجتمع ، وتحقيق هذا المنهج ؛ وإيثاره الموت فى سبيله على الحياة فى ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله فى حياة الجماعة البشرية .. وهو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهى أعز ما يحرص عليه الأحياء ! ومن ثم يُدعى شهيداً .

ويمضى السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى عليه السلام وبنى إسرائيل : ويعرض للمكر الذى مكره اليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام ، فقد قذفوه وقذفوا أمه الطاهرة البتول ، واتهموه بالكذب والشعوذة ؛ ووشوا به إلى الحاكم ، ومكروا لصلبه وقتله ، ومكر الله فوق مكرهم فأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .. وكان ما أراده الله . وأبطل الله مكر الماكرين .

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه .. فهى أمور غيبية تدخل فى المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله . ولا طائل وراء البحث فيها . لا فى عقيدة ولا فى شريعة . والذين يجرون وراءها ويجعلونها مادة للجدل ، ينتهى بهم الحال إلى المراء .

ويعقب الله عز وجل على هذه القصة بتقرير الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص ، فهو وحى من الله . يتلوه الله على نبيه ﷺ ، ويقرر أن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر . ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبى البشر ، ويؤكد بهذه البساطة حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم ، وحقيقة الخلق كله ، وبعد هذا التقرير الواضح يخاطب النبى ﷺ ويثبته على الحق الذى معه ، والذى يُتلى عليه ، ويؤكده فى حسه ؛ وحس من حوله من المسلمين ، الذين ربما تؤثر فى بعضهم شبهات أهل الكتاب : ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهنا ـ وقد وضحت القضية وظهر الحق جلياً ـ يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة وحول هذا الحق البين وأن يدعوهم إلى المباهلة ..

وقد دعا الرسول ﷺ من كانوا يناظرونه فى هذه القضية إلى هذا الاجتماع الحاشد ، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة وتبين الحق

واضحاً ، ولكنهم فيما ورد من الروايات لم يسلموا احتفاظاً بمكانتهم من قومهم ، وبما كان يتمتع به رجال الكنيسة من سلطان وجاه ومصالح ونعيم !! وما كانت البينة هى التى يحتاج إليها من يصدون عن هذا الدين ؛ إنما هى المصالح والمطامع والهوى يصد الناس عن الحق الواضح الذى لا خفاء فيه .

قال بعض المفسرين : الآية الكريمة تأمر النبى ﷺ أن يدعو المجادلين فى عيسى عليه السلام من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالا ، ويجمع هو ﷺ المؤمنين رجالاً ونساءً وأطفالا ويبتهلون إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى عليه السلام .

وإنما جمع فى المباهلة ـ الملاعنة ـ الأبناء والنساء والأطفال . لأنه لما ظهرت مكابرتهم فى الحق وحب الدنيا ، عُلِمَ أن من هذه صفته يكون أهله ونساؤه أحب إليه من الحق .

والمباهلة دعوة إنصاف ، لا يدعو إليها إلا واثق من أنه على الحق ، ولم تتم المباهلة لما روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران ، وأرادا أن يلاعنا رسول الله بعد أن رفضا ما عرضه عليهما رسول الله فقال لهما : « نلاعن » .

فقال أحدهما لصاحبه : لا تلاعنه ، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا أبداً ، قال : فأتيا رسول الله فقالا : لا نلاعنك ولكنا نعطيك ما سألت ، فابعث معنا رجلاً أمينا.

فقال النبى ﷺ : «لأبعثن رجلاً أمينا حق أمين » قال:فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، قال ﷺ :« قم يا أبا عبيدة بن الجراح » ، قال : فلما قام قال : « هذا أمين الأمة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ـ القعود عن نصرة الحق بكل وسيلة ممكنة إثم ومعصية لله تعالى ، وتشجيع للباطل وأهله ، وسكوت عن إفساد العقول وإفساد المجتمع كله ، ذلك المجتمع الذى سوف ينساق إلى إيثار الباطل على الحق .

٢ ـ الله ولى المؤمنين فى كل مكان وزمان ، وأنه يتقبل منهم صالح أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء على كل دفاع عن الحق وما تكلفوه فى سبيله .

٣ ـ إن الدعاة ورثة الأنبياء عليهم السلام ، وما من نبى هَالهُ باطل قومه أو أفزعه ضلالهم ، ولا فتر عن الدعوة بسبب عناد المدعوين . وإنما شأن الأنبياء جميعاً أن يصبروا على الناس ، وأن يستمروا فى الدعوة إلى الله حتى يلقوا الله رب العالمين .

٤ ـ ينبغى أن يكون موقف الدعاة مع المعاندين والمجادلين ؛ هو موقف التلطف فى الإقناع بالحق ، والجدال بالتى هى أحسن من أجل إظهار الحق الذى يجحدون ودحض الباطل الذى يزعمون .

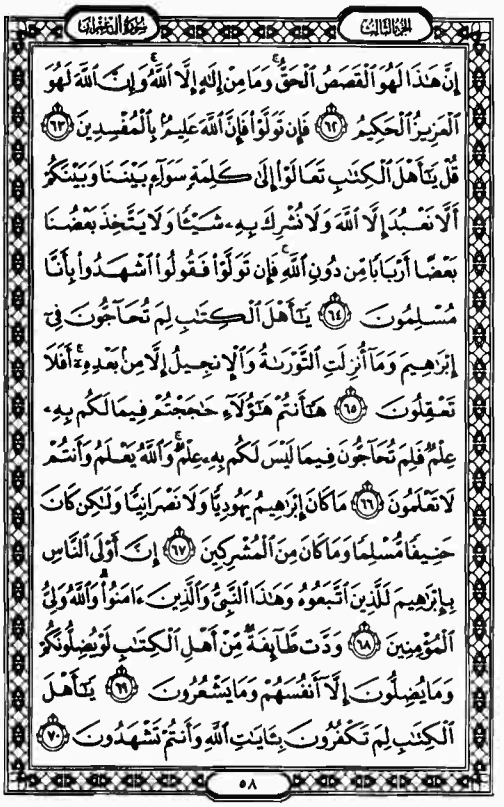
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
٥٨

معانى الكلمات :

فإن تولوا : فإن أعرضوا .

سواء بيننا وبينكم : أى يستوى أمرها ، لا يختلف فيها اثنان وهى أن نعبد الله وحده لا شريك له ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . **لم تحاجون** : لما تجادلون ؟

فيما لكم به علم : مما ورد فى التوراة والإنجيل . **حنيفاً** : مائلاً عن الباطل والعقائد الزائفة إلى الدين الحق .

أولى : أحق . **ودت** : أحبت

طائفة : جماعة .

وأنتم تشهدون : وأنتم تشهدون أنها آيات الله حقاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يستنبط الداعية الأساليب الدعوية التى يمكن أن يستخدمها فى مواجهة أهل الباطل فى جدالهم .

٢ ـ أن نعرف كيف أبطل الله تعالى زعم أهل الكتاب فى نسبة إبراهيم عليه السلام إليهم .

٣ ـ أن نتعرف على أساليب أهل الكتاب فى تلبيس الحق بالباطل ، وهدفهم من ذلك .

٤ ـ أن نربط بين مكائد أهل الكتاب للإسلام وأهله فى الوقت الحاضر ، ومقارنتها بما جاء فى الآيات .

المحتوى التربوى :

بعد دحض دعاوى أهل الكتاب والرد عليهم وحسم القضية بالمباهلة ، يصف المولى عز وجل الذين يتولون عن الحق بأنهم مفسدون ، وتهديدهم بأن الله عليم بالمفسدين ..

ويقول صاحب الظلال : « والفساد الذى يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد فساد عظيم . وما ينشأ فى الأرض الفساد ـ فى الواقع ـ إلا من الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة لا اعتراف

اللسان . فاعتراف اللسان لا قيمة له ، ولا اعتراف القلب السلبى فهذا الاعتراف لا ينشئ آثاره الواقعية فى حياة الناس ، إنما هى الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التى تلازمها فى واقع الحياة البشرية .

إن هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله ، إلا أن يكون هناك إله واحد ، يدبر أمره : و ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية : تعبد العبيد ، والتشريع لهم فى حياتهم ، وإقامة الموازين لهم . فمن ادعى لنفسه شيئاً من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية ؛ وأقام نفسه للناس إلهاً من دون الله .. » .

ومن ثم يتلو ذلك التهديد دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء : إلى عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وألا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. وإلا فهى المفاصلة التى لا مصاحبة بعدها ولا مجادلة ، وإنها لدعوة منصفة عادلة من غير شك ،دعوة لا يأباها إلا متعنت ، لا يريد أن يفىء إلى الحق القويم .

فهى دعوة إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً لا بشراً ولا حجراً . ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضاً من دون الله أربابًا . لا نبياً ولا رسولاً . فكلهم لله عبيد . إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه ، لا لمشاركته فى الألوهية والربوبية .

وتواجه الآيات أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ بسخف موقفهم وهم يحاجون فى إبراهيم عليه السلام فكل طائفة تزعم أنه منهم . على حين أنه سابق لليهودية والنصرانية ، سابق للتوراة والإنجيل . ومن ثم تسقط ادعاءات هؤلاء وهؤلاء ، ويتبين خط الإسلام الواصل بين رسل الله والمؤمنين بهم على توالى القرون .

يلى ذلك كشف الهدف الأصيل الكامن وراء مماراة أهل الكتاب فى إبراهيم وغيره ، وهو الرغبة الملحة فى إضلال المسلمين عن دينهم ، وتشكيكهم فى عقيدتهم ، ويواجه أهل الكتاب بألاعيبهم وكيدهم وتدبيرهم على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة . وهو يمزق عنهم الأردية التى يتخفون تحتها .

ويقول صاحب الظلال : « إن الإحنة التى يكنها أهل الكتاب للجماعة المسلمة هى الإحنة المتعلقة بالعقيدة . إنهم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدى . يكرهون لها أن تفىء إلى عقيدتها الخاصة فى قوة ويقين . ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هذا النهج ، والإلواء بها عن هذا الطريق .

وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر ، ضلال لا شك فيه . فما تنبعث مثل هذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى . فهم يوقعون أنفسهم فى الضلالة فى اللحظة التى يودون فيها إضلال المسلمين فما يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهيم فى الضلال البهيم .

والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم وهؤلاء ما استقاموا على إسلامهم وما لهم عليهم من سبيل، والله سبحانه وتعالى يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين ، وأن يرتد عليهم كيدهم ما بقى المسلمون مسلمين .

ويقرع المولى عز وجل أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب ؛ لأن أهل الكتاب وقتها ـ وما يزالون حتى اليوم ـ يشهدون الحق واضحاً فى هذا الدين . سواء منهم المطلعون على حقيقة ما جاء فى كتبهم عنه من بشارات وإشارات ـ وكان بعضهم يصرح بما يجد من هذا كله وبعضهم يسلم بناء على هذا الذى يجده فى كتبه ويشهده متحققاً أمامه ـ وسواء كذلك غير المطلعين ، ولكنهم يجدون فى الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان .. غير أنهم يكفرون .. لا لنقص فى الدليل ولكن للهوى والمصلحة والتضليل .. والقرآن يناديهم : « يا أهل الكتاب » .. لأنها الصفة التى كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الأخير إلى البشر» .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ أن هذه الآيات قد دلتنا على بعض مظاهر ودوافع التخطيط والتآمر والكيد لأهل الإسلام . وبسبب من القوة المادية الهائلة للكفر فى عصرنا الحالى، فقد أخذت هذه الأمور مداها الواسع الآن ، فلنتذكر ـ إذ يأمرنا الله ـ عز وجل ـ بعدم طاعة أهل الكتاب ـ للأسباب ـ الموجبة لذلك مما قصه الله علينا فى سياق الآيات السابقة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على الدعاة أن يدركوا أن كثيراً من مجادلات أهل الكتاب لا تقوم على أساس من عقل أو منطق وإنما هى المغالطات ، والواجب على الدعاة أن يعملوا من أجل هذا الدين بثقة ويقين فى ظهور دولة الحق ، وزوال دولة الباطل ولا يتطرق إلى نفوسهم فى ذلك أدنى شك .

٢ ـ على الدعاة أن يدركوا أن العقيدة هى الوشيجة الأولى التى يتلاقى عليها الناس فى الإسلام ، والولاية بين فرد وفرد ومجموعة ومجموعة وبين جيل وجيل لا ترتكن إلى الدم أو الجنس أو الوطن أو القومية أو أية وشيجة أخرى سوى العقيدة .

٣ ـ البشرية إما تعيش ـ كما يريدها الإسلام ـ أناساً تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلاقة العقيدة .. وإما تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية أو حدود الجنس واللون .. وكلها حدود مما يقام للماشية فى المراعى كى لا يختلط قطيع بقطيع .

٤ ـ لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ما داموا متمسكين بوحى السماء ، وهدى الإسلام. لا شك فى ذلك .

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ
بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ
عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا
مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ
سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا
خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

معانى الكلمات :

تلبسون : تخلطون أو تسترون .

وجه النهار : أوله .

يحاجوكم : يجادلوكم .

واسع : كرمه وعلمه محيطان بكل شىء.

عليه قائماً : مداوماً على المطالبة .

فى الأميين : فيمن ليسوا من ديننا .

سبيل : عتاب وذم أو إثم وحرج .

لا خلاق لهم : لا نصيب لهم من الخير .

لا يكلمهم الله : كلام لطف ورحمة .

لا ينظر إليهم : لا يرحمهم .

لا يزكيهم: لا يطهرهم . أو لا يثنى عليهم.

الأهداف الإجرائية والسلوكية

١ ـ أن نتعرف على حيل أهل الكتاب فى تلبيس الحق بالباطل ، وهدفهم من ذلك .

٢ ـ أن نستقرئ من الآيات كيفية مواجهة أساليب أهل الكتاب .

٣ ـ أن نحدد الأسس التى تقوم عليها الولاية .

٤ ـ أن نربط بين خصائص أهل الكتاب ومزاعمهم وأساليبهم فى الكيد للمسلمين .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات كشف اللثام عن مكائد أهل الكتاب ، وهو تلبيس الحق بالباطل لإخفائه وكتمانه وتضييعه فى غمار الباطل على علم وعن عمد وقصد .. وهو أمر مستنكر قبيح ! فقد دسوا فى التراث الإسلامى وفى التاريخ وفى الحديث الشريف وفى التفسير ، وما يزالون فى صورة المستشرقين وتلامذتهم الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم فى البلدان التى يقول أهلها: إنهم مسلمون ، والعشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة فى صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية ؛ ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين !

ويقول صاحب الظلال : « وما يزال هذا الكيد قائماً ومطردًا . وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هى اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ ؛ والعودة إليه لاستشارته فى المعركة الناشبة طوال هذه القرون .

ويخبرنا الله عن بقية مكائدهم ، ليلبّسوا على الضعفاء من الناس أمر ردهم إلى دينهم ، وهى أنهم ائتمروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلُّوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ؛ ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلاعُهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ، فيرتد المسلمون عن دينهم .

ويقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه . وقد فقه هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤون النبى ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام « هل يرجع عنه من دخل فى دينه ؟ فقال أبو سفيان : لا » وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب .. ويقول الإمام محمد عبده : « ويظهر لى أن النبىﷺ ما أمر بقتل المرتد إلا لتخويف أولئك الذين كانوا يدبرون المكائد لإرجاع الناس عن الإسلام بالتشكيك فيه ، لأن مثل هذه المكائد إذا لم يكن لها أثر فى نفوس الأقوياء من الصحابة الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه إلى عين اليقين ، فإنها تخدع الضعفاء الذين يدخلون فى الإسلام لتفضيله على الوثنية فى الجملة قبل أن تطمئن قلوبهم بالإيمان كالذين كانوا يعرفون بالمؤلفة قلوبهم » .

وهنا يوجه الله نبيه ﷺ أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله ؛ وأن من لا يفىء إليه لن يجد الهدى أبداً فى أى منهج ولا فى أى طريق . ويبين المولى عز وجل مكائد أهل الكتاب وما تنطوى عليه نفوسهم من الحقد والحسد والنقمة أن يؤتى الله أحداً من النبوة والكتاب ما آتى أهل الكتاب . وهو الخوف أن يكون فى الاطمئنان للمسلمين واطلاعهم على الحقيقة التى يعرفها أهل الكتاب ثم ينكرونها عن هذا الدين ، ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله !

ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم ـ ويعلم الجماعة المسلمة ـ حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمن على أمة برسالة وبرسول ؛ فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

ينتقل السياق ليبين شريحة أخلاقية من طبائع أهل الكتاب وهى أن منهم أناس أمناء لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية ، ولكن منهم كذلك الخونة والظالمون المماطلون الذين لا يردون حقاً وإن صغر إلا بالمماطلة والإلحاح والملازمة . والعجيب فى شأن هؤلاء أنهم يردون أفعالهم القبيحة تلك إلى أن الله أمرهم بذلك كذباً على الله وبهتانا وزوراً فهم يقولون : إن أموال

غير اليهودى حلال لليهودى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذه على وجه الخصوص صفة اليهود فهم الذين يقولون هذا القول ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . فالأمانة بين اليهودى واليهودى . أما غير اليهودى ويسمونهم الأميين فلا حرج على اليهودى فى أكل أموالهم .

ويرد عليهم القرآن ويقرر قاعدته الخلقية الواحدة ، وميزانه الخلقى الواحد ، ويربط ذلك بالتقوى لله عز وجّل . ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « وهى قاعدة واحدة من راعاها وفاء بعهد الله وشعوراً بتقواه أحبه الله وأكرمه . ومن اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمناً قليلاً ـ من عرض هذه الدنيا أو بالدنيا كلها وهى متاع قليل ـ فلا نصيب له فى الآخرة ، ولا رعاية له عند الله ولا قبول ، ولا زكاة له ولا طهارة . وإنما هو العذاب الأليم .

وهذه هى نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة . فى الوفاء بالعهد وفى سواه من الأخلاق التعامل هو أولاً تعامل مع الله ، يلحظ فيه جناب الله ، ويتجنب به سخط الله ويطلب به رضاه فالباعث الأخلاقى ليس هو المصلحة، وليس هو عرف الجماعة ، ولا مقتضيات ظروفها القائمة. فإن الجماعة قد تضل وتنحرف ، وتروج فيها المقاييس الباطلة ، فلابد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء . ولابد أن يكون لهذا المقياس فوق ثباته قوة يستمدها من جهة أعلى .. أعلى من اصطلاح الناس ومن مقتضيات حياتهم المتغيرة .. ومن ثم ينبغى أن تستمد القيم والمقاييس من الله ، بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه .. بهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من الأرض ؛ واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق الثابت السابق الوضىء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ من كذب على الله أحرى به أن يكذب على الناس .

٢ ـ عظم ذنب من يخون عهده من أجل المال ، وكذا من يحلف كاذباً لأجل المال ، لقول النبى ﷺ : « من حلف على يمين يستحق بها مالاً وهو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان » .

٣ ـ المكر والخداع من الصفات اللازمة لليهود؛لذا يجب ألا يوثق بهم لما عرفوا به من الخيانة .

٤ ـ الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى ، ومن ثم لا يتغير فى التعامل مع عدو أو صديق .

٥ ـ من أخلاق المسلمين أداء الأمانات إلى أهلها فى كل الظروف والوفاء بالعهد ، والصدق فى اليمين .

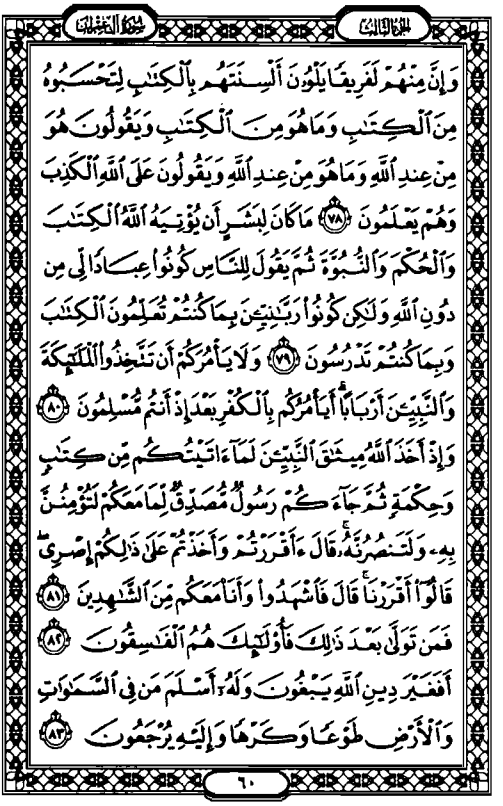
وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾
٦٠

معانى الكلمات :

يلوون ألسنتهم : يميلونها عن الصحيح إلى المحرَّف . **الحكم** : الحكمة أو الفهم والعلم . **كونوا ربانيين** : كونوا مُعَلِّمِينَ فقهاء فى الدين . **تدرُسُوَن** : تقرؤون الكتاب . **إصرى** : عهدى . **يبغون** : يريدون ويطلبون . **أسلم** : انقاد وخضع . **طوعاً** : عن رغبة . **كرها** : لا إرادة له فيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية

١ ـ أن نتعرف على أباطيل أهل الكتاب وكذبهم فى أمر الدين من أجل مكاسبهم الدنيوية .

٢ ـ أن نتبين حقيقة الصلة بين الأنبياء وعهد الله إليهم بالإسلام والنصرة لمن جاء بعدهم .

٣ ـ أن نعلم حقيقة الربانية والعبودية ونتخلق بهما .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات فى عرض نماذج من أهل الكتاب ؛ فتعرض نموذج المضللين ، الذين يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل ، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه ، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواءهم ، ويشترون بهذا كله ثمناً قليلاً .. عرضاً من عرض هذه الحياة الدنيا : ومن بين ما يلوون ألسنتهم به ويحرفونه ويؤولونه ما يختص بمعتقداتهم التى ابتدعوها عن المسيح عليه السلام ، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء .

ويقول صاحب الظلال : « وآفة رجال الدين حين يفسدون ، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين . وهذه الحال التى يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب ، نعرفها نحن جيداً فى زماننا هذا ، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ، ويلوونها ليا ، ليصلوا منها إلى مقررات معينة ، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها.. بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله فى أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لا

تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التى يُلجئون إليها النصوص إلجاء .

وهذه آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم . إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوى إرضاء هوى من الأهواء التى يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض ، وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، وتمليق كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله ، ومجاراة أهوائهم المنحرفة ، التى تصادم دين الله .. وكأنما الله ـ سبحانه ـ يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبىء . الذى انتهى بنزع أمانة القيادة من بنى إسرائيل .

وتطلعنا الآيات على حقيقة أخرى وهى أن أى نبى يوقن أنه عبد ، وأن الله وحده هو الرب ، الذى يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم . فما يمكن أن يدعى لنفسه صفة الألوهية التى تقتضى من الناس العبودية . فلن يقول نبى للناس : ﴿ كُونُوا عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، توجهوا إليه ولكن قوله لهم : ﴿ كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ منتسبين إلى الرب ، عباداً له وعبيداً ، توجهوا إليه وحده بالعبادة ، وخذوا عنه وحده منهج حياتكم ، حتى تخلصوا له وحده فتكونوا ربانيين بحكم علمكم بالكتاب وتدارسكم له . فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته .

يقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : أفادت الآية أن الإنسان يكون ربانياً بعلم الكتاب ودرسه وبتعليمه للناس ونشره ، ومن المقرر أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعمل بالعلم ، والعلم الذى لا يبعث على العمل لا يُعد علماً صحيحاً ؛ لأن العلم الصحيح ما كان صفة للعالم وملكة راسخة فى نفسه ، وإنما الأعمال آثار الصفات والملكات والمعلم يعبر عما رسخ فى نفسه .

والنبى لا يأمر الناس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، فالنبى لا يأمر الناس بالكفر بعد أن يسلموا لله ويستسلموا لألوهية الله ، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم ، وليقودهم إلى الإسلام لا ليكفرهم !

ومن ثم تتجلى استحالة هذا الذى ينسبه ذلك الفريق إلى عيسى عليه السلام ، كما يتجلى الكذب على الله فى ادعائهم أن هذا من عند الله .. وتسقط فى الوقت ذاته قيمة كل ما يقوله هذا الفريق وما يعيده لإلقاء الريب والشكوك فى الصف المسلم . وقد عرّاهم القرآن هذه التعرية على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة .

ثم تصور الآيات حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات . على عهد من الله وميثاق ، ينبنى عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات ؛ وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله

على الإطلاق . فلقد أخذ الله ـ سبحانه ـ موثقاً جليلاً كان هو شاهده وأشهد عليه رسله . موثقاً على كل رسول . أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة ، ثم جاء رسول بعده مصدقاً لما معه ، أن يؤمن به وينصره ، ويتبع دينه ، وجعل هذا عهداً بينه وبين كل رسول .

ويقول صاحب الظلال : « وفى ظل هذا المشهد يبدو الموكب الكريم متصلاً متسانداً مستسلماً للتوجيه العلوى ، ممثلاً للحقيقة الواحدة التى شاء الله ـ سبحانه ـ أن تقوم عليها الحياة البشرية ، ولا تنحرف ، ولا تتعدد ، ولا تتعارض ، ولا تتصادم .. إنما ينتدب لها المختار من عباد الله ؛ ثم يسلمها إلى المختار بعده ، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به ، فما للنبى فى نفسه من شىء ؛ وما له فى هذه المهمة من أرب شخصى ، ولا مجد ذاتى . إنما هو عبد مصطفى. ومبلغ مختار . والله ـ سبحانه ـ هو الذى ينقل خُطا هذه الدعوة بين أجيال البشر ؛ ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء .

وفى ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخير ﷺ ـ ومناصرته وتأييده، تمسكا بدياناتهم ـ لا بحقيقتها فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته ، ولكن باسمها تعصباً لأنفسهم فى صورة التعصب لها ! ـ مع أن رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهداً ثقيلاً غليظاً مع ربهم فى مشهد مرهوب جليل .. فى ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلفون فسقة عن تعاليم أنبيائهم ، فسقة عن عهد الله معهم ، فسقة عن نظام الكون كله المستسلم لبارئه ، الخاضع لناموسه ، المدبر بأمره ومشيئته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ روى أبو يعلى والبزار عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا ، وإنكم إمّا أن تصدِّقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق ، وإنّه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعنى » .

٢ ـ عيسى عليه السلام بشر ، رسول ، لم يدع الألوهية ، بل أرشد الناس إلى عبادة الله وحده .

٣ ـ سادات الناس هم الربانيون الذين يربون الناس بالعلم والحكمة فيصلحونهم ويهدونهم.

٤ ـ الإنكار على من يُعْرِض عن دين الإسلام . مع أن الكون كله خاضع منقاد لأمر الله ويسير وفق مشيئته .

قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟
أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾
٦١

معانى الكلمات :

الأسباط : أولاد يعقوب ـ عليه السلام .

من يبتغ : من يطلب . **البينات** : الدلائل الواضحات . **يُنظَرون** : يمهلون .

الضالون : التائهون فى ظلمات الكفر .

البر : كمال الخير .

من ناصرين : من معينين ، دافعين للعذاب

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات

٢ ـ أن نفهم حقيقة الإسلام ووحدة الدين .

٣ ـ أن نتبين سنة الله فيمن توغل فى الكفر أو الظلم أو الفسق وبلغ حداً بعيداً فيه .

المحتوى التربوى :

بعد أن أعلنت الآيات السابقة حقيقة الموكب النبوى الكريم الذى حمل منهج الله وبلغه على مدار الأزمان والعصور ، فإن الله فى الآيات يأمر نبيه ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة كلها ؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات ، واحترامها لجميع الرسل ، ومعرفتها بطبيعة دين الله ، الذى لا يقبل الله من الناس سواه .

وهذا هو الإسلام فى سعته وشموله لكل الرسالات قبله ، وفى ولائه لكافة الرسل حملته . وفى توحيده لدين الله كله ، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده .

ويقول صاحب الظلال تعقيباً على قوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ :

« فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه . بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس . كما يتجلى فى الآية قبلها ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ فظاهر أن إسلام

الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر ، واتباع النظام ، وطاعة الناموس .. ومن ثم تتجلى عناية الله ـ سبحانه ـ ببيان معنى الإسلام وحقيقته فى كل مناسبة . كى لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان ، أو تصديق يستقر فى القلب ، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله ، وتحقيق هذا المنهج فى واقع الحياة .

وهناك حقيقة أخرى تؤكدها هذه النصوص المتلاحقة وهى لا سبيل لتأويل حقيقة الإسلام ، ولا للىّ النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به الله ، الإسلام الذى يدين به الكون كله . فى صورة خضوع للنظام الذى قرره الله له ودبره به .

ولن يكون الإسلام هو النطق بالشهادتين ، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها . وهى توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه . ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها . وهى التقيد بالمنهج الذى جاء به من عند ربه للحياة ، واتباع البشرية التى أرسله بها ، والتحاكم إلى الكتاب الذى حمله للعباد .

ولن يكون الإسلام إذن تصديقاً بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله..دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملى ، وحقيقته الواقعية ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات ، أو إشراقات وسبحات ، أو تهذيباً خُلقياً وإرشاداً روحياً .. دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية . فمثله فى منهج للحياة موصول بالله الذى تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر ، والإشراقات والسبحات ، والذى تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد .. فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له فى حياة البشر ما لم تنصب آثاره فى نظام اجتماعى يعيش الناس فى إطاره النظيف الوضىء .

يقول صاحب الظلال : « الإسلام هو الاستسلام ، الإسلام الطاعة والاتباع ، الإسلام تحكيم كتاب الله فى أمور العباد .

الإسلام توحيد الألوهية والقوامة ، بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله ـ سبحانه ـ وذات المسيح عليه السلام كما يخلطون بين إرادة الله وإرادة المسيح أيضًا ، ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافًا عنيفًا يصل فى أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال .

إنه ليس اختلافًا عن جهل بحقيقة الأمر ، فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية الله ، وتفرد الألوهية ، وبطبيعة البشرية ، وحقيقة العبودية ، ولكنهم إنما اختلفوا حينما تخلوا عن قسط الله وعدله الذى تتضمنته عقيدته وشريعته وكتبه .

ويحمل الله جملة رعيبة يرجف لها كل قلب فيه ذرة من إيمان ؛ ومن جدية الأمر فى الدنيا والآخرة سواء . ويعرض لجزاء من تتاح له فرصة النجاة ، ثم يعرض عنها هذا الإعراض . ويتعجب كيف يهدى الله هؤلاء الذين لا يستحقون هداية الله بعدما تلبّسوا به من العمى وكفروا بعد إيمانهم ، وجزاء هؤلاء اللّعنة من الله والملائكة والناس . وأنهم خالدون فى هذه اللعنة ، وأن العذاب لا يفتر عنهم ساعة واحدة ، ثم فتح لهؤلاء باب الأمل على مقتضى الفضل بأنهم إذا تابوا بعد ردّتهم وأصلحوا ، فإن رحمة الله وغفرانه يصلان إليهم .

فالإسلام يفتح باب التوبة ، ولا يغلقه فى وجه ضال يريد أن يتوب ؛ ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب ، بل أن يدلف إليه فليس دونه حجاب ، وإلا أن يفىء إلى الحمى الآمن ، ويعمل صالحاً فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب .

فأما الذين لا يتوبون ولا يثوبون الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفراً . والذين يلجون فى هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة ، وينتهى أمد الاختبار ، ويأتى دور الجزاء . هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة . ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهباً فيما يظنون هم أنه خير وبر ، ما دام مقطوعاً عن الصلة بالله .

ومن ثم فهو غير موصول به ولا خالص له بطبيعة الحال . ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة، وهكذا يحسم السياق بهذا التقرير المروع المفزع ، وبهذا التوكيد الفاضح الذى لا يدع ريبة لمستريب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الدين عند الله الإسلام ، ومن ابتغى غيره فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين .

٢ ـ لا يقبل الله توبة ممن أخرها إلى حضور الموت .

٣ ـ لن ينفع الكفار يوم القيامة فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً .

٤ ـ إن الدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء ، وينبغى أن يكون شأنهم دائماً أن يأخذوا بحجز الناس عن الوقوع فى النار ، ولا عليهم من حرج إن أبى بعض الناس إلا أن يقتحموا النار .

٥ ـ أن يتعلم الدعاة أن من الناس من يزدادون كفراً بعد إيمانهم ، أو يتركون طريق الله بعد أن كانوا يسعون فيها، بل قد يتحول بعضهم إلى عداء الدعوة ويناصب من كان معهم ـ بالأمس فى موكب الدعوة ـ العداء بل أشد أنواع العداء !!

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾
٦٢

معانى الكلمات :

إسرائيل: يعقوب عليه السلام. **افترى**: اختلق كذباً. **للذى ببكة** : المسجد الحرام . **من كفر** : من جحد فريضة الحج. **تبغونها عوجاً**: تطلبونها معوجة. **تصدون**: تمنعون وتصرفون الناس. **فريقاً** : طائفة . **يردوكم** : يجعلوكم كفاراً بعد إيمانكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الشروط الضرورية لنيل البر .

٢ ـ أن نفند مزاعم اليهود فى تحريم بعض الأطعمة كما أوردت الآيات .

٣ ـ أن نربط بين ما جاء فى هذه الآيات وما جاء فى سورة البقرة بخصوص تحويل القبلة .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يبين الله البذل الذى يرضاه ، بمناسبة الإنفاق على غير درب الله ، وفى غير سبيله ، وبمناسبة الافتداء يوم لا ينفع الفداء. وقد فقه المسلمون وقتها معنى هذا التوجيه الإلهى، وحرصوا على أن ينالوا البر ـ وهو جماع الخير ـ بالنزول عما يحبون ، وببذل الطيب من المال ، سخية به نفوسهم فى انتظار ما هو أكبر وأفضل .

وينتقل السياق للرد على بنى إسرائيل على اعتراضهم على إباحة القرآن لبعض المحرمات اليهودية من الطعام . مع أن هذه المحرمات إنما حرمت عليهم وحدهم ، فى صورة عقوبة على بعض مخالفاتهم . ولقد كان اليهود يتصيدون كل حجة ، وكل شبهة ، وكل حيلة ؛ لينفذوا منها إلى الطعن فى صحة الرسالة المحمدية ، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب فى العقول والقلوب .. فلما قال القرآن : إنه مصدق لما فى التوراة برزوا يقولون : فما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما حرم على بنى إسرائيل . وهناك محرمات أخرى كذلك أحلها الله للمسلمين .

ويقول صاحب الظلال : «وهنا يردهم القرآن إلى الحقيقة التاريخية التى يتجاهلونها للتشكيك فى صحة ما جاء فى القرآن من أنه مصدق للتوراة ، وأنه مع هذا أحل للمسلمين بعض ما كان محرماً على بنى إسرائيل .. هذه الحقيقة هى أن كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل ـ إلا ما حرم

إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ـ وتقول الروايات : إن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً ، فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن ـ تطوعاً ـ عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه . فقبل الله منه نذره . وجرت سنة بنى إسرائيل على اتباع أبيهم فى تحريم ما حرم .. كذلك حرم الله على بنى إسرائيل مطاعم أخرى عقوبة لهم على معاص ارتكبوها . وأشير إلى هذه المحرمات فى آية الأنعام ... يردهم الله إلى هذه الحقيقة ليبين أن الأصل فى هذه المطاعم هو الحل ، وأنها حرمت عليهم لملابسات خاصة بهم . فإذا أحلها للمسلمين فهذا هو الأصل الذى لا يثير الاعتراض ، ولا شك فى صحة القرآن .

ويتحداهم أن يرجعوا إلى التوراة ، وأن يأتوا بها ليقرؤوها ، وسيجدون فيها أن أسباب التحريم خاصة بهم وليست عامة ؛ ثم يهدد من يفترى الكذب منهم على الله بأنه إذن ظالم ، لا ينصف الحقيقة ، ولا ينصف نفسه ، ولا ينصف الناس ، وعقاب الظالم معروف ، فيكفى أن يوصموا بهذه الوصمة ، ليقرر نوع العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يفترون الكذب على الله . وهم إليه راجعون ..

ويتحدث السياق عن لجاجة بنى إسرائيل فى الحق ، وإثارتهم للفتن، فلقد عادوا للحديث فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، مع أن هذا الموضوع قد نوقش مناقشة كاملة وافية فى سورة البقرة من قبل ، وتبين أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأولى ، وتقرر الآيات حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنًا ، وليكون للمؤمنين بدينه قبلة ومصلى ، ومن ثم يجىء الأمر باتباع إبراهيم فى ملته ، وهى التوحيد الخالص المبرأ من الشرك فى كل صورة .

واليهود كانوا يزعمون أنهم ورثة إبراهيم . فها هو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم ؛ وأنه الميل عن كل شرك . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين : مرة بأنه كان حنيفاً ومرة بأنه كان من المشركين . فما بالهم هم مشركين !!

ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل ، فهى أول بيت وضع فى الأرض للعبادة وخصص لها مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده ، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود . وجعله مباركاً وهدى للعالمين ، يجدون عنده الهدى بدين الله ملة إبراهيم » .

يقول صاحب المنار : « أما قوله تعالى فى البيت ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَلَمِينَ ﴾ فهو بيان لحاله الحسنة الحسيه وحاله الشريفة المعنوية . **أما الأولى** : فهى ما أفيض عليه من بركات الأرض وثمرات كل شيء على كونه بواد غير ذى زرع ، فترى الأقوات والثمار فى مكة أكثر وأجود وأقل ثمنا منها فى مصر وكثير من بلاد الشام . **وأما الثانية** : فهى هوى أفئدة الناس إليه وإتيانه للحج والعمرة مشاة وركباناً من كل فج ، وتولية وجوههم شطره فى الصلاة ، ولعله لا تمر ساعة ولا

دقيقة من ليل أو نهار وليس فيها أناس متوجهون إلى ذلك البيت الحرام يصلون . فأى هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية .

ثم يقرر أن الله فرض على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسر لهم ذلك . وإلا فهو الكفر الذى لا يضر الله شيئاً ، والحج فريضة فى العمرة مرة ، عند أول ما تتوافر الاستطاعة . من الصحة وإمكان السفر وأمن الطريق » .

ويقول صاحب الظلال : « والحج مؤتمر المسلمين السنوى العام . يتلاقون فيه عند البيت الذى صدرت لهم الدعوة منه ـ والذى بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم إبراهيم . والذى جعله الله أول بيت فى الأرض لعبادته خالصاً . فهو تجمع له مغزاه ، وله ذكرياته هذه ، التى تطوّف كلها حول المعنى الكريم ، الذى يصل الناس بخالقهم العظيم .. معنى العقيدة . استجابة الروح لله الذى من نفخة روحه صار الإنسان إنساناً . وهو المعنى الذى يليق بالأناسى أن يتجمعوا عليه ، وأن يتوافدوا كل عام إلى المكان المقدس الذى انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم .

بعد هذا البيان يلقن الرسول ﷺ أن يتجه إلى أهل الكتاب بالتنديد والتهديد ، على موقفهم من الحق الذى يعلمونه ، ثم يصدون عنه ، ويكفرون بآيات الله . وهم شهداء على صحتها ، وهم من صدقها على يقين ، وينهى الجدل مع أهل الكتاب ، يتجه إلى الجماعة المسلمة بالخطاب والتحذير من أهل الكتاب وطاعتهم ؛ لأن طاعتهم واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلى عن دور القيادة الذى من أجله أنشئت الأمة المسلمة ، كما تحمل الشك فى كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها ، والسير بها صعدا فى طريق النماء والارتقاء وهذا بذاته دبيب الكفر فى النفس ، وأهل الكتاب لا يحرصون على شىء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن اليهود محترفو إثارة الشبهات والفتن ، وبلبلة العقائد والأفكار ، وإلصاق نقائصهم وعقدهم النفسية بغيرهم .

٢ ـ أن المؤمن يثق فى ربه ورسوله وكتابه لا يلتفت لما سواه ، وأن دينه هو دين الحق والوسطية ودين الأنبياء .

٣ ـ أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

٤ ـ على المسلم أن يكون على حذر ، وأن يخشى فتنة الردة والقعود عن طريق الله ؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

معانى الكلمات :

حق تقاته : حق تقواه .

اعتصموا بحبل الله : تمسكوا بعهده .

وألف : جمع .

شفا حفرة : حافتها .

المعروف : ما أمر به الشرع .

المنكر : ما نهى عنه الشرع واستقبحه الطبع والعقل .

رحمة الله : جنته ودار نعيمه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحدد الركائز التى تقوم عليها الجماعة المسلمة كما حددتها الآيات .

٢ـ أن نقارن بين صفات الجماعة المسلمة وصفات الكافرين من أهل الكتاب كما وضحت الآيات .

٣ ـ أن ندرك أهمية وضرورة الجماعة المسلمة الآن التى تحقق هذه الآيات .

المحتوى التربوى :

بعد أن حذر الحق ـ تبارك وتعالى ـ من التلقى من أهل الكتاب وطاعتهم واتباعهم ينادى الجماعة المسلمة ويوجهها إلى قاعدتين أساسيتين متلازمتين لابد منهما حتى تستطيع القيام بأمانة الاستخلاف : أولاهما الإيمان والثانية الأخوة .

يقول صاحب الظلال : « إنهما كركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة وبهما تؤدى دورها الشاق فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ولم يكن هنالك دور لها تؤديه ركيزة الإيمان والتقوى أولاً ... التقوى التى تبلغ أن توفى بحق الله الجليل ، التقوى الدائمة اليقظة التى لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، ولأن الموت غيب لا يدرى أى إنسان حين يدركه .. فينبغى على المسلم أن يكون فى كل لحظة مسلماً أى مستسلماً لله طاعة له واتباعاً لمنهجه واحتكاماً إلى كتابه .

وأما الركيزة الثانية : فهى ركيزة الأخوة فى الله على منهج الله لتحقيق منهج الله ، وهى أخوة تنبثق من التقوى والإسلام . أساسها الاعتصام بحبل الله أى عهده ودينه ومنهجه ، وليست مجرد تجمع على أى تصور آخر من تصورات الجاهلية الكثيرة : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، وهذه الأخوة المعتصمة بحبل الله يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً .. وهو هنا يذكرهم بهذه النعمة ، وما كان أعدى من الأوس والخزرج فى المدينة أحد . وهما حيان من العرب فى يثرب يجاورهما اليهود والذين كانوا يوقدون نيران العداوة بين الحيين بالإسلام . وما كان يمكن أن يجمع تلك القلوب إلا أخوة فى الله . ويذكرهم نعمته عليهم فى إنقاذهم من النار التى كانوا على وشك الوقوع فيها فأنقذهم باعتصامهم بحبل الله ـ الركيزة الأولى ـ وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ـ الركيزة الثانية .

يقول صاحب المنار : « انظر آية الله ، قوم متخالفون بين العداوات والإحن يتربص كل واحد بالآخر الهلكة على يده ، فيأتى الله بهذه الهداية فيجمعهم ويزيل كل ما فى نفوسهم من التنافر ويجعلهم إخواناً ترجع أهواؤهم كلها إلى شىء واحد لا يختلفون فيه ، وهو حكم الله . ولذلك قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى ليعدكم ويؤهلكم بها للاهتداء الدائم المستمر فلا تعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان.

ويقول صاحب الظلال : « والنص القرآنى يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط وهو القلب ، فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله على عهده وميثاقه ويرسم النص صورة متحركة حية لمشهد النجاة بعد الهلاك المحقق ، فبينما حركة السقوط فى حفرة النار متوقعة إذا بالقلوب ترى يد الله وهى تدرك وتنقذ وحبل الله وهو يمتد ويعصم .

ويتحدث السياق عن الوظيفة الأساسية للجماعة المسلمة القائمة على ركيزتى الإيمان والأخوة ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله فى الأرض ، ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر ، والخير على الشر ، وكما يقول صاحب الظلال ـ رحمة الله ـ فلابد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذى سلطان فإن الأمر والنهى لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ، ومن ثم فلابد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين ـ الإيمان بالله والأخوة فى الله ـ لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق . وهذا يقتضى قيام سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتطاع ، حتى تستطيع أن ترد الجبار الغاشم والحاكم المتسلط والمنحرف الهابط والمستفيد الظالم ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر .

وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ القيام به شريطة الفلاح فقال عن الذين يهتدون به : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإسلامى ذاته ، فهذه الجماعة هى الوسط الذى يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق فى صورته الواقعية .

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى فى المدينة على هاتين الركيزتين ؛ على الإيمان بالله والأخوة وعلى الحب الفياض الرائق والود العذب الجميل . وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله فى الأرض فى كل زمان .. ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف . وينذرها عاقبة الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب . فنزع الله الراية منهم وسلمها للجماعة المسلمة المتآخية.فوق ما ينتظرهم من عذاب يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وهنا يرسم السياق لمشهد من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية فهذه وجوه قد أشرقت بالنور وفاضت بالبشر فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن والغم واسودت من الكآبة .

وليست مع هذا متروكة إلى ما هى فيه ولكنه الردع والتبكيت والتأنيب : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وذلك ليستقر فى ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف . ومعنى النعمة الإلهية الكريمة بالإيمان والائتلاف » . ويعقب ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيباً قرآنياً يتمشى مع صدق الوحى والرسالة وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة ، يتضمن العدل المطلق فى حكم الله فى الدنيا والآخرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ تقوى الله حق تقاته واجب شرعى ، يُلزم بها كل مسلم وحق التقوى كما فسرها ابن عباس ـ رضى الله عنهما: « الجهاد فى سبيل الله حق جهاده ، وألا يأخذه فى الله لومة لائم ، وأن يقوم لله بالقسط ولو على نفسه أو والده أو ولده والأقربين .

٢ ـ الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو الأمان ضد أى شر ، ووقاية من كل عدو .

٣ ـ سبل الفلاح ثلاث : دعوة إلى الخير ، وأمر بمعروف ، ونهى عن المنكر .

٤ ـ كل ما أنزل الله على رسوله ﷺ حق ، يجب الالتزام به والتواصى عليه ، والعمل به والصبر على تحمل النتائج فى التمسك به مهما أصاب صاحبه من محن ومتاعب .

٥ ـ الثبات على الإسلام والاستمرار عليه، والذود عنه ، أصبح واجباً دينياً ، دعوياً وحركياً، بعد أن تمزقت وحدة المسلمين وأضحوا لقمة سائغة لأعدائهم .

٦ ـ على المسلمين أن يقاوموا كل أسباب الفرقة والاختلاف ، وأن يسعوا بكل وسيلة إلى نبذ الخصام والشقاق ؛ لأن فى ذلك حياتهم وعزتهم وإرضاءهم لربهم عز وجل .

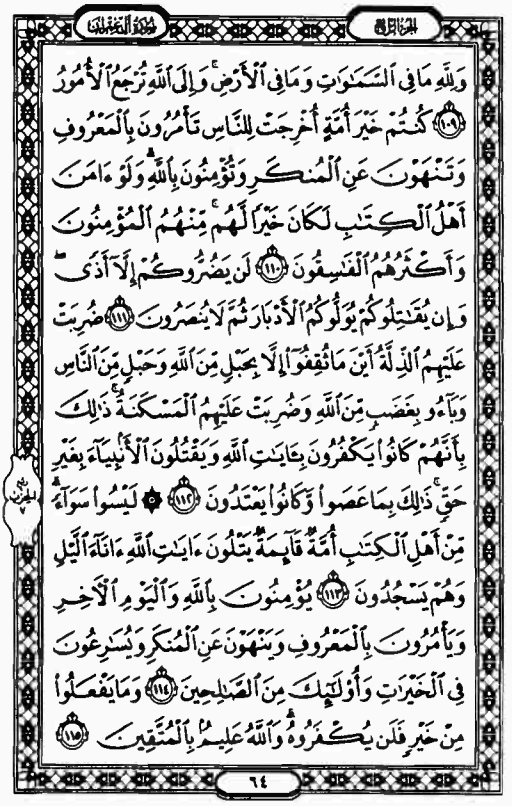
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾
كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ
وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ
وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾
٦٤

معانى الكلمات :

الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله .

يولوكم الأدبار : ينهزموا أمامكم .

أينما ثُقفوا : فى أى مكان وُجدوا وأُدركوا .

إلا بحبل من الله : إلا بعهد من الله وذمة وهو الإسلام . **باؤوا بغضب** : رجعوا بغضب ولعنة .

المسكنة : فقر النفس وشحها .

أمة قائمة : مستقيمة ثابتة على الحق

آناء الليل : ساعات الليل .

فلن يكفروه : فلا يُجحدَ لهم فضل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحدد صفات خير أمة أخرجت للناس كما جاءت بالآيات .

٢ ـ أن نوضح أهمية وجود هذه الصفات للجماعة المسلمة .

٣ ـ أن نثق فى نصر الله لهذا الدين ، ونتبين الفرق بين المؤمنين والكافرين .

٤ ـ أن نتعرف على صفات الكافرين من أهل الكتاب ونحذرها كما جاءت بالآيات .

المحتوى التربوى :

صورت الآيات ـ فيما سبق ـ مصائر وجزاءات أهل الكتاب الكافرين ، وهى محض عدل من الله المالك لأمر السموات والأرض ، وإليه مصير الأمور ، وأمر الله هذا بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق ، وأن يجرى العدل ، وأن تسير الأمور بالجد اللائق بجلال الله .. لا كما يدعى أهل الكتاب أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات !

وفيما يلى يطوّف بنا السياق لبيان فضل هذه الأمة وعلو شأنها وسمو مكانتها . فيصف هذه الأمة لنفسها ليعرفها مكانتها وقيمتها وحقيقتها ، ثم يصف لها أهل الكتاب ولا يبخسهم قدرهم إنما يبين حقيقتهم ويؤملهم فى ثواب الإيمان وخيره ، ويطمئن المسلمين من جانب عدوهم فهم لن يضروهم فى كيدهم لهم وقتالهم ولن يُنصروا عليهم ، وللذين كفروا منهم عذاب النار فى الآخرة لا ينفعهم فيه ما أنفقوا فى الحياة الدنيا بلا إيمان ولا تقوى .

يقول صاحب الظلال : والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ كسمة لهذه الأمة ـ إنما هو العمل الإيجابى لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذى يحدد المعروف والمنكر .. وهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما فى طريقها من أشواك .. إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد .. وكل هذا متعب شاق ، ولكنه ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته ؛ ولتحقيق الصورة التى يحب الله أن تكون عليها الحياة .

ولابد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر. فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفى فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل . ولابد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر . يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس فى جيل من الأجيال.

ثم يرغب الله أهل الكتاب فى الإيمان . فهو خير لهم . خير لهم فى هذه الدنيا ، يستعصمون به من الفرقة والهلكة التى كانوا عليها فى تصوراتهم الاعتقادية ، والتى ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية . إذ تعجز هذه التصورات الجاهلية عن أن تكون قاعدة لقيادة شؤون حياتهم ، وهذا الإيمان خير لهم فى الآخرة يقيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير .

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحَسُن إسلامهم ، ولكن أكثرهم قد فسقوا عن دين الله ، حين لم يفوا بميثاق الله مع النبيين ، ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات منوعة باليهود فى المدينة ، ولما كانت لليهود ـ حتى ذلك الحين ـ قوة ظاهرة : عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين ، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين فى نفوس المسلمين ، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم ، وتفرقهم شيعاً وفرقاً، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة .

وفى مقابل ذلك ضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة ، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء وهم معتصمون بدينهم وربهم فى يقين فقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « فلن يكون ضرراً عميقاً ولا أصلاً يتناول أصل الدعوة ، ولن يؤثر فى كينونة الجماعة المسلمة ، ولن يجليها من الأرض .. إنما هو الأذى العارض فى الصدام ، والألم الذاهب مع الأيام .فأما حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال، فالهزيمة مكتوبة عليهم ـ فى النهاية ـ والنصر ليس لهم على المؤمنين ، ولا ناصر لهم كذلك ولا عاصم من المؤمنين ذلك أنه قد : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ وكتبت لهم مصيراً ... » .

وإنصافاً للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، يعود السياق عليهم بالاستثناء ، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء. فهناك المؤمنون . يصور حالهم مع ربهم ، فإذا هى حال المؤمنين الصادقين . ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين .

وهى صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب . فقد آمنوا إيماناً صادقاً عميقاً ، وكاملاً شاملاً، وانضموا للصف المسلم ، وقاموا على حراسة هذا الدين .. آمنوا بالله واليوم الآخر وقد نهضوا بتكاليف الإيمان ، وحققوا سمة الأمة المسلمة التى انضموا إليها ـ خير أمة أخرجت للناس ـ فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر..وقد رغبت نفوسهم فى الخير جملة ، فجعلوه الهدف الذى يسابقون فيه ، فسارعوا فى الخيرات ، ومن ثم هذه الشهادة العلوية لهم أنهم من الصالحين. وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يُبخسوا حقاً ولن يُكفروا أجراً مع الإشارة إلى أن الله ـ سبحانه ـ علم أنهم مع المتقين .

وهى صورة ترفع أمر الراغبين فى هذه الشهادة ، وفى هذا الوعد ، ليحققها فى ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضيء فى أفقها المنير .

ويقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : هذه الآية من العدل الإلهى فى بيان حقيقة الواقع وإزالة الإيهام السابق ، وهى دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء ، وأن كل من أخذه بإذعان ، وعمل فيه بإخلاص ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين . وفى هذا العدل قطع لاحتجاج أهل الكتاب الذين يعرفون من أنفسهم الإيمان والإخلاص فى العمل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ التقرب إلى الله والحصول على رضاه وثوابه لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وأن الله تعالى فتح الباب أمام كل الناس من كل الأديان التى لم يدخلها تحريف .

٢ـ الأمة الإسلامية خير الأمم بشروط ، وأنها لم تميز بذلك لسبب عرقى أو إقليمى أولأنها أمة خاتم الأنبياء ، وإنما لأنها تتوفر فيها شروط الخيرية أى الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا زالت عنهم تلك الصفات عادوا كغيرهم من الأمم ، ولحقهم الذم وكان ذلك سبباً فى ضعفهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة .

٣ـ وعد الله الأمة المسلمة بالنصر على أعدائها ما استمسكت بشرعه ، وضمن لها ذلك ، وكتب على عدوها الذلة والهوان .

٤ـ ما كتب الله الذل والمسكنة على اليهود إلا لكفرهم المستمر ، وقتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم على حدود الشرع .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ۖ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ
وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ
مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟
بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

معانى الكلمات :

لن تغنى عنهم : لن تدفع عنهم .

حرث قوم : زرعهم . **فيها صر** : فيها برد شديد . **بطانة** :خواص يعرفون أسراركم .

لا يألونكم خبالا : لا يقصرون فى فساد دينكم . **ودوا ما عنتم** : أحبوا ، وتمنوا وقوعكم . **من أفواههم** : من كلامهم .

غدوت : خرجت أول النهار .

تبوئ المؤمنين : تنزلهم وتوطنهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلتزم أمر الله فيما حذرنا منه فى الآيات .

٢ ـ أن ندرك الأسباب التى أوضحها الله للمؤمنين لهذا النهى والتحذير .

٣ ـ أن نقارن بين مشاعر المؤمنين تجاه أهل الكتاب والعكس .

٤ ـ أن نبين للعالم صورة الإسلام السمحة فى التعامل مع الآخر .

المحتوى التربوى :

من قبل عرض السياق لإنصاف المولى ـ عز وجل ـ للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، بأن ما يفعلوا من خير فلن يُكفروه هذا فى جانب .. وفى الجانب الآخر ، الكافرون . الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ؛ ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن ينالهم شىء منها فى الآخرة لأنها لم تتصل بخط الخير الثابت المستقيم . الخير المنبثق من الإيمان بالله ، على تصور واضح ، وهدف ثابت ، وطريق موصول . وإلا فالخير نزوة عارضة لا ثبات لها ، وجنوح يصّرفه الهوى ، ولا يرجع إلى أصل واضح مدرك مفهوم ، ولا إلى منهج كامل شامل مستقيم .

ويقول صاحب الظلال : « إن أموالهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح لهم فدية من العذاب ، ولا تنجيهم من النار ، وهم أصحاب النار وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيراً . فلا خير إلا أن يكون موصولاً بالإيمان ، ونابعاً من الإيمان » .

ويعلن البيان القرآنى سلوك أهل الكتاب المنحرف ، وجدالهم المقيت ، ويفضح سعيهم بالمسلمين لإلحاق السوء بهم ، ويوجه الجماعة المسلمة لتنهض بتكاليفها ، دون أن تلقى بالاً إلى المجادلين المنحرفين الفاسقين ، فلا يجدر بها بعد ذلك أن تتخذ من أعدائها الدائمين بطانة ، ولا تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ، وهم للذين آمنوا بئس العدو ، ورسم البيان القرآنى فى صورة واضحة مقاصد أهل الكتاب التى ما نزال نرى مصداقها فى كل وقت وفى كل أرض ، فغفل عنها أهل القرآن فأصابهم من غفلتهم ـ وما يزال ـ يصيبهم الشر والأذى والمهانة .

والمسلمون فى غفلة من تحذير الله لهم ، يوادون من حاد الله ورسوله ؛ ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم والله ـ سبحانه ـ يقول للجماعة المسلمة فى أى جيل : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ .

ومرة بعد مرة تصعقنا التجارب المرة ، ولكننا لا نفيق .. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر . ومرة بعد مرة تنقلب ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التى لا يذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين .. ومع ذلك نعود ، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء فى الحياة والطريق ! وتبلغ بنا المجاملة ، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم فى عقيدتنا فنتحاشى ذكرها ، وفى منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام ، وفى تزويرتاريخنا وطمس معالمه كى نتقى فيه ذكر أى صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين ! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله ، ومن هنا نذل ونضعف ونستخذى . ومن هنا نلقى العنت الذى يوده أعداؤنا لنا ، ونلقى الخبال الذى يدسونه فى صفوفنا .

ومع ذلك يصدر البيان القرآن مستأنفاً النصح والتوجيه للأمة المسلمة،فى كيفية اتقاء كيدهم، ودفع آذاهم ، والنجاة من الشر الذى تكنه صدورهم ، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ ؛ وسبيل ذلك الطريق كما **يقول صاحب الظلال** : « الصبر والتقوى .. التماسك والاعتصام بحبل الله . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة الله وحدها، وحققوا منهج الله فى حياتهم كلها .. إلا عزوا وانتصروا ، ووقاهم الله كيد أعدائهم ، وكانت كلمتهم هى العليا . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبعيين ، الذين يحاربون عقيدتهم ومنهجهم سراً وجهراً ، واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاءً وأعواناً وخبراء ومستشارين .. إلا كتب الله عليهم الهزيمة ، ومكن لأعدائهم فيهم ، وأذل رقابهم ، وأذاقهم وبال أمرهم .. والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة ، وأن سنة الله نافذة . فمن عمى عن سنة الله المشهودة فى الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار والهوان .

وهناك حقيقة أخرى نود أن نقررها فى خاتمة هذا البيان القرآنى عن حقيقة ودخيلة أهل الكفر تجاه أهل الإيمان ، وهى أنه بالرغم من هذا العداء السافر للإسلام وأهله من أهل الكتاب، إلا أن الإسلام لا يحرض المسلمين على مقابلة هذا الغدر والحقد والكراهية والمكر بمثله ، إنما هى مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم ، وللكينونة المسلمة ، وأما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعاً ؛ وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعاً ، فيتقى الكيد ولكنه لا يكيد ، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد . إلا أن يحاربَ فى دينه ، وأن يفتن فى عقيدته ، وأن يصد عن سبيل الله ومنهجه ، فحينئذ هو مُطالبَ أن يحارب ، وأن يقبع الفتنة ، وأن يزيل العثرات التى تصد الناس عن سبيل الله ، وعن تحقيق منهجه فى الحياة . يحارب جهاداً فى سبيل الله لا انتقاماً لذاته ، وحباً لخير البشر لا حقداً على الذين آذوه . وتحطيماً للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير . لا حباً للغلب والاستعلاء والاستغلال . وإقامة النظام القويم الذى يستمتع الجميع فى ظله بالعدل والسلام . لا لتركيز راية قومية ولا لبناء إمبراطورية !

إن هذا المنهج ثابت لخير البشرية ، وما يصد البشرية عنه إلا أعدى أعداء البشرية الذين يسعى المسلمون لاستئصالهم حتى تُقصيهم عن قيادتها ، وهو أمر واجب انتدبت له الجماعة المسلمة على مر العصور ، وهى مدعوة دائماً إلى أدائه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . تحت هذا اللواء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لن يغنى عن المرء مال ولا ولد متى ظلم وحارب منهج الله وتعرض لنقمته .

٢ ـ بطلان العمل الصالح ما دام صاحبه مشركاً أو مات على كفر .

٣ ـ حرمة موالاة أعداء الدين ، والتحذير من جعلهم أمناء على أسرار المسلمين ومصالحهم ، لما فى نفوسهم من حقد وكراهية أبدية للمسلمين ، وتربصهم بنا ـ دائماً ـ الدوائر والكيد لنا ليلاً ونهاراً .

٤ ـ الصبر والتقوى طريق العزة والانتصار ، وموالاة أعداء الله واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين سبيل الذل والانكسار .

٥ ـ الإسلام لخير البشرية ، والجهاد فريضة لعزته ، لا للاستعلاء فى الأرض بغير الحق .

٦ـ الإسلام يأمر بالحوار والتفاهم والتبادل الحضارى مع الآخر دون اتخاذه بطانة أو الاستسلام له على حساب العقيدة .

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ
مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ
﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾
٦٦

معانى الكلمات :

طائفتان : حيان من الأنصار . **أن تفشلا** : بأن تجبنا وتضعفا . **أذلة** : بقلة العدد والعدة . **مسومين** : معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات . **ليقطع طرفاً** : ليهلك طائفة . **أو يكبتهم** : يخزيهم بالهزيمة .

الربا : الزيادة فى المال . **مضاعفة** : كثيرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعرف الأسباب التى تؤهل المؤمنين لأن يكونوا أهلاً لمدد الله ونصره .

٢ ـ أن نحدد أهداف مقاتلة الكفار ونلتزم بأخلاقيات الجهاد .

٣ ـ أن نلتزم بأمر الله فى النهى عن التعامل بالربا .

٤ ـ أن ندرك العلاقة بين النصر وطهارة النفوس والقلوب .

المحتوى التربوى :

ترسم الآيات المشهد الأول لغزوة أحد وتستعيده لاستحضاره فى نفوس المخاطبين الأولين بهذا القرآن ، ويؤكد حقيقة كبرى لطالما سعى النص القرآنى لتوكيدها وهى حضور الله ـ سبحانه ـ معهم ، وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم . ويالها من رهبة إذن ومن روعة تحف هذا الموقف والسرائر مكشوفة فيه لله ، وهو يسمع ما تقوله الألسن ، ويعلم ما تهمس به الضمائر .

والمشهد الثانى فى حركة الفشل والضعف التى راودت قلوب طائفتين من المسلمين ، بعد تلك الحركة الخائنة التى قام بها رأس النفاق « عبد الله بن أبى ابن سلول » حين انفصل بثلث الجيش ، مغضباً أن الرسول ﷺ لم يأخذ برأيه ، واستمع إلى شباب أهل المدينة ، وهاتان الطائفتان ـ كما ورد فى الصحيح ـ من حديث سفيان بن عيينة ـ هما بنو حارثة وبنو سلمة أثرت فيهما حركة ابن سلول ، وما أحدثته من رجة فى الصف المسلم ، من أول خطوة فى المعركة . فكادتا تفشلان وتضعفان ، لولا أن أدركتهما ولاية الله وتثبيته .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا يكشف الله المخبوء فى مكنونات الضمائر .. والذى لم يعلمه إلا أهله حين حاك فى صدورهم لحظة ليشعرهم حضوره معهم وعلمه بمكنونات ضمائرهم كما قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وليعرفهم كيف كانت النجاة وإشعارهم عونه ورعايته حين يدركهم الضعف ويدب فيهم الفشل ليعرفوا أين يتوجهون وأين يلتجئون : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وهكذا يبدأ الحديث عن المعركة التى لم ينتصر فيها المسلمون والتى بدأت بتغليب الاعتبارات الشخصية على العقيدة عند المنافق عبد الله بن أبى ؛ وتابعه فى حركته أتباعه الذين غلّبوا اعتباره الشخصى على عقيدتهم . وبالضعف الذى كاد يدرك طائفتين صالحتين من المسلمين ، ثم انتهت بالمصير الذى انتهت إليه بسبب ذلك الخلل فى الصف والغبش فى التصور .

وقبل أن يمضى فى الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التى انتهت بالهزيمة ، يذكرهم بالمعركة التى انتهت بالنصر ـ معركة بدر ـ لتكون هذه أمام تلك ، مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ؛ ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، وأسباب النصر والهزيمة . ثم ـ بعد ذلك ـ ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ وأن مرد الأمر فى النهاية إلى الله على كلا الحالين ، وفى جميع الأحوال » .

والنصر فى بدر كان منحة من الله تعطلت فيها الأسباب العادية وظهرت فيها آثار المعجزات ، فانتصرت قلة مسلمة فى وسط خضم من الشرك والكفر ، ولم تكن قد زالت عنهم بعد صفة أنهم مهاجرون مطاردون من مكة ، وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبتة غير مستقرة فى هذه البيئة فبهذا كله يذكرهم الله ـ سبحانه ـ ويرد النصر إلى سببه الأول وسط هذه الظروف : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

واللمسة الأولى : هنا هى تذكيرهم بأن الله هو الذى نصرهم ، فإذا خافوا فليخافوا الله الذى يملك النصر والهزيمة : فلعل التقوى تقودهم إلى الشكر ، **واللمسة الثانية** : هى تبليغ الرسول المؤمنين ما وعده الله به من المدد من الملائكة وأبلغهم شرط هذا المدد . إنه الصبر والتقوى . الصبر على صدمة الهجوم والتقوى التى تربط القلوب بالله فى النصر والهزيمة ثم يبين حكمة هذا النصر .. أى نصر وغاياته التى ليس لأحد من البشر منها شىء .

ويقول صاحب الظلال : « إن النصر من عند الله . لتحقيق قدر الله . وليس للرسول ـ ﷺ ـ ولا للمجاهدين معه فى النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصى . كما أنه ليس له ولهم دخل فى تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء ! فلاهم أسباب هذا النصر وصانعوه ؛ ولاهم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ! إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده . لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده ، .. ويخبرهم أنه ليس لهم من الأمر شىء . إنما الطاعة

والوفاء والأداء هى المطلوبة من الناس ، وأما الأمر بعد ذلك فكله لله . ليس لأحد منه شىء ولا حتى لرسول الله ﷺ .

ويختم هذا التذكير ببدر بأن الله له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو المتصرف المطلق فى شؤون عباده ، بحكم هذه الملكية لما فى السموات والأرض وليس هنالك ظلم ولا محاباة للعباد ، فى المغفرة أو العذاب ، إنما يقضى الأمر فى هذا الشأن بالحكمة والعدل ، وبالرحمة والمغفرة فهذا شأنه ـ سبحانه ـ ؛ والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته ، بالعودة إليه ، ورد الأمر كله له ، وأداء الواجب المفروض وترك ما وراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب ».

وقبل أن يدخل السياق فى صميم الاستعراض لمعركة أحد ، والتعقيبات على وقائعها وأحداثها .. يجىء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة وهى الوحدة والشمول فى مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كله ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة والعبودية لله ، والتوجه إليه بالأمر كله ، .. ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ؛ وبين تطهير النفوس وطهارة القلوب ، والسيطرة على الأهواء والشهوات .

فالنهى عن أكل الربا فى سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهوماً فى هذا المنهج الشامل البصير .. أما التعقيب على هذا النهى بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح ؛ واتقاء النار التى أعدت للكافرين .. فلا يأكل الربا إنسان يتقى الله ويخاف النار التى أعدت للكافرين ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله ، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين .. والإيمان ليس كلمة تقال باللسان ؛ إنما هو اتباع للمنهج الذى جعله الله ترجمة عملية واقعية لهذا الإيمان.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل أمر من الأمور يجب أن نعد له ونأخذ له بأسبابه ، بل ونخطط له مسبقاً بتحديد الهدف واختيار الوسيلة وتوضيح الجهد ورسم الموقع ومعرفة دور كل فرد وواجباته .

٢ ـ اليقين بأن الله تعالى ، سميع لكل ما يقال ، عليم بكل ما يخالج النوايا ، ومحاسب على هذا وذاك .

٣ ـ التوكل على الله من صفات المؤمنين ، ولكنه لا يعنى التواكل والتراخى ، أو الاكتفاء بالدعاء دون العمل ، وإنما يجب الأخذ بالأسباب والإعداد الجيد قبل كل عمل .

٤ ـ نصر الله للمؤمنين لا يتوقف على قدرتهم واستعدادهم فحسب ، وإنما قد يأتى النصر مع قلة العدد وضآلة العتاد ، ما دام الإيمان قوياً ، والاعتماد على الله ـ بعد الأخذ فى الأسباب ـ منهجاً فى تناول الأمور .

٥ ـ تقوى الله ، والصبر على المكاره ، سببان حيويان فى زيادة عطاء الله وإمداده ونصره .

وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ
مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ
وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾
٦٧

معانى الكلمات :

سارعو:عجلوا وبادروا . **السراء والضراء** : اليسر والعسر من الحال. **الكاظمين الغيظ** : الصابرين وقت الغضب . **فاحشة** : خطيئة كبيرة . **ظلموا أنفسهم** : فعلوا ذنباً صغيراً . **قد خلت**:قد مضت . **لا تهنوا**: لا تضعفوا . **يمسسكم قرح** : يصبكم جراح وأذى . **تلك الأيام** : أوقات الغلبة . **نداولها**: نقلبها بينهم،يوم نصر ويوم هزيمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف صفات المتقين التى حددتها الآيات .

٢ ـ أن نوضح جزاء المتقين عند الله ـ عز وجل ـ الذى أعده لهم .

٣ ـ أن نتحقق من مدى تحقق صفات المتقين فى أنفسنا .

٤ ـ أن ندرك سنن الله فى الأرض ونعتبر بها فى حياتنا .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات سباقاً يستنفر فيه الله ـ عز وجل ـ عباده المؤمنين إلى جائزة تنال فلابد أن يسارعوا فهناك المغفرة وهناك الجنة أعدها الله للمتقين ، وأخذ يعرض فى الثمن الذى تُنال به الجائزة وهى صفات المتقين فهم ثابتون على البذل ، ماضون على النهج ، ولا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء ، فالسراء لا تبطرهم فتلهيهم ، والضراء لا تضجرهم فتنسيهم . إنما هو الشعور بالواجب فى كل حال ؛ والتحرر من الشح والحرص ؛ ومراقبة الله وتقواه وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال بفطرتها .. ما يدفع النفس إلى الإنفاق فى كل حال ، إلا دافع أقوى من شهوة المال ، وربقة الحرص ، وثقلة الشح .. دافع التقوى . ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذى تشف به الروح وتخلص ، وتنطلق من القيود والأغلال .

ويقول صاحب الظلال : « كذلك تعمل التقوى فى هذا الحقل ، بنفس البواعث ونفس المؤثرات . فالغيظ انفعال بشرى ، تصاحبه أو تلاحقه فورة فى الدم ، فهو إحدى دفعات التكوين

البشرى ، وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ؛ وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهى وحدها لا تكفى . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ؛ فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم فى نفوس المتقين .. إنها العفو والسماحة والانطلاق . إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ؛ وشواظ يلفح القلب ؛ ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد فى القلب ، والسلام فى الضمير .. والجماعة التى يحبها الله ، وتحب الله .. والتى تشيع فيها السماحة واليسر والانطلاق من الإحن والأضغان .. هى جماعة متضامنة ، وجماعة متآخية . وجماعة قوية .

وينتقل السياق إلى صفة أخرى من صفات المتقين ومعها يعرض سماحة هذا الدين ، فلا يدعوهم إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحة المولى ـ عز وجل ـ معهم ليتذوقوا ويتعلموا ويقتدوا ؛ يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : «إن المتقين فى أعلى مراتب المؤمنين ولكن سماحته ورحمته بالبشر تلك عداد المتقين « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها ، من رحمة الله ، ولا تجعلهم فى ذيل القافلة قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . « مرتبة المتقين » .. على شرط واحد .. يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته .. أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجحوا بالمعصية فى غير تحرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا فى إطار العبودية لله ، والاستسلام له فى النهاية . فيظلوا فى كنف الله وفى محيط عفوه ورحمته وفضله .

إنه لا يُغلق فى وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا يلقيه منبوذاً حائراً فى التيه ! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب .. إنه يطمعه فى المغفرة ، ويدله على الطريق ، ويأخذ بيده المرتعشة ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفىء إلى الحمى الآمن ، ويثوب إلى الكنف الأمين .

والإسلام لا يدعو ـ بهذا ـ إلى الترخص ، ولا يمجد العاثر الهابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع ! إنما يقيل عثرة الضعيف ، ليستجيش فى النفس الإنسانية الرجاء والحياء .. وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلا ، والرحمة بها حين التعثر ، ويفتح أمامها باب الرجاء ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها » .

وبعد ذلك يجعل جزاء هؤلاء المتقين المغفرة من ربهم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين فهم ليسوا سلبيين بالاستغفار ، كما أنهم ليسوا سلبيين بالإنفاق فى السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس ، إنما هم عاملون وتقرر الآيات الثوابت الربانية لتعالج أحداث معركة أحد فيشير إلى سنة الله الجارية فى المكذبين ، ليقول للمسلمين : إن انتصار المشركين فى هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة ، إنما هو حادث عابر ، وراءه حكمة خاصة ، ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان ، فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها فى المعركة ذاتها وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها : حكمة تمييز الصفوف ، وتمحيص القلوب واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ؛ وفى خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال ، والمواساة فى الشدة ، والتأسية على القرح ، الذى لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً ، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً ، والعاقبة والدائرة على الكافرين .

يقول صاحب المنار : « أرشدهم الله ـ تعالى ـ فى الآيات السابقة إلى أنه لا ينبغى لهم أن يضعفوا أو يحزنوا ، وبين لهم حكمة ما أصابهم وأنه منطوٍ على سننه فى مداولة الأيام بين الناس وفى تمحيص أهل الحق بالشدائد ، وفى ذلك من الهداية والإرشاد والتسلية ما يربى المؤمن على الصفات التى ينال بها الغلب والسيادة بالحق .

ما ترشدنا الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن ليس بمعصوم من الوقوع فى الخطأ ، ولكن النجاة من العقاب إنما تكون بالمسارعة إلى فعل الخيرات والمبادرة إليها ، وترك المعاصى واجتنابها وذكر الله مع لزوم الاستغفار .

٢ ـ لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .

٣ ـ أن الإنسان فى هذه الحياة لا يستحق العيش إذا لم يسع ويعمل على تجنب المعاصى ويقبل على الطاعة ، إذ الحياة مزرعة الآخرة ومن خسر الباقية بالفانية فذلك هو الغبن .

٤ ـ طريق الدعوة إلى الله قلما يخلو من أخطاء السائرين فيه ؛ إذ هو طريق المتاعب والمكاره والتحدى والصراع بين الحق والباطل ، بين أولياء الله وأعدائه وأعداء منهجه ونظامه ، ومن أجل ذلك كله وجبت التوبة والاستغفار وذكر الله كثيراً .

٥ ـ أن المسلمين إذا لم يعتبروا بأحوال السابقين ، فقد تركوا هدى القرآن الكريم ، ولم يعملوا بما فيه ، وتنكبوا طريق الحق ، وخالفوا ما أمر الله به وأتوا ما نهى عنه .

٦ ـ ألا يضعف المسلم فى عبادته أو عمله أو مواجهة عدوه ؛ لأن المسلم المتمسك بدينه على الحق ـ دائماً ، ومحب للخير دائماً ومحسن فى التعامل مع غيره دائماً .

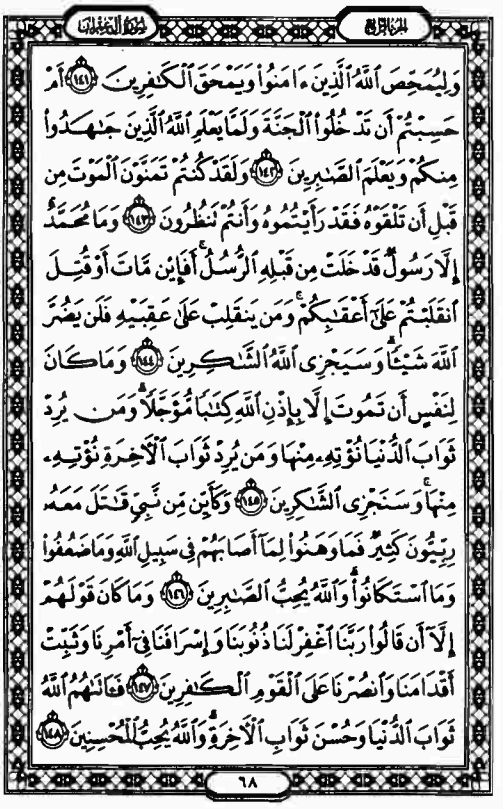
وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟
وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
٦٨

معانى الكلمات :

وليُمحّص : يُصفّى ويطهر من الذُّنوب .

يمحق : يُهلك ويستأصل . **كتاباً مؤجلاً** : مؤقتاً بوقت معلوم . **وكأين من نبى** : كثير من الأنبياء . **ربّيُّون** : علماء فقهاء أو جموع كثيرة . **فما وهنوا** : فما عجزوا. **وما استكانوا** : ما خضعوا ، أو ذَلّوا لعدوهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن يعرف الدعاة أهمية التمحيص والابتلاء كخط أصيل فى الدعوات .

٢ـ أن نوقن بأن الأجل بيد الله وحده ، ونستعد لما بعد الموت .

٣ـ أن نتخلق بصفات الربانيين لننال ثوابهم عند الله .

المحتوى التربوى :

يبين السياق القرآنى الحكمة من وراء تلك الأحداث .. وهى تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى فى أن تكون أداة لسحق الكافرين وستاراً لقدرته فى هلاك المكذبين ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ والتمحيص عملية تتم فى داخل النفس وفى مكنون الضمير يُقصد منها كشف مكنون الشخصية تمهيداً لإخراج الدخل والدغل والأوشاب. وتركها نقية صافية بلا غبش ولا ضباب .

وهذا التمحيص ضرورى لكى تتم عملية الاستخلاف ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ كان يربى هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية ، فمحصها هذا التمحيص .. وهكذا يجرى الله سنته بالتمحيص لمن أراد أن يستخلفهم ليكونوا أهلاً لهذا الشرف .. ولترتفع الأمة إلى مستوى الدور المقدّر لها ، وليتحقق على يديها قدر الله الذى علقه بها ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ تحقيقاً لسنته فى دفع الباطل بالحق .

ويطرح الله سؤالًا استنكارياً يُقصد منه التنبيه إلى خطأ التصور القائل : إنه يكفى الإنسان أن يقول بلسانه : أسلمت وأنا على استعداد للموت فيكون قد أدى بها تكاليف الإيمان ، وإنما لابد من التجربة الواقعية والابتلاء العملى ليُرى من يصبر على تكاليف الإيمان .

ويقول صاحب الظلال : « فلا يكفى أن يجاهد المؤمنون .. إنما هو الصبر الدائم بالليل والنهار على تكاليف هذه الدعوة ، وربما كان الجهاد فى الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التى يطلب لها الصبر فى الطريق المحفوف بالمكاره ، طريق الجنة التى لا تُنال بالأمانى وبكلمات اللسان .

ثم يقفهم القرآن مرة أخرى أمام الموت الذى واجهوه فى المعركة وقد كانوا يتمنون لقاءه ، ليعلمهم الفرق بين وزن الكلمة ووزنها حقيقة ، ويعلمهم أن يحسبوا حساباً لكل كلمة تطلقها ألسنتهم . ويعلمهم أن بلوغ الجنة إنما هو بتحقيق الكلمة بالجهاد الحقيقى لا بالأمانى المرفرفة ، ولا بالكلمات الطائرة .

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدينه بلا كد أو تعب .. ولكن المسألة ليست هى النصر .. وإنما تربية الجماعة المسلمة لتتهيأ لقيادة البشرية ، تربية راشدة ثابتة صابرة .. وهى تربية تتم بأشكال مختلفة ، بالنصر لينظر إلى زهوها وخيلائها ، وبالشدة لينظر مدى صبرها وثباتها . وكل هذه الثمرات من غزوة أحد تبقى رصيداً لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من الأجيال حتى تقوم الساعة .

ويقول صاحب المنار : « وقال الأستاذ الإمام : إن تمنى الشهادة الذى وقع ليس تمنياً مطلقاً وإنما هو تمنى من يقاتل لنصرة الحق أن تذهب نفسه دونه ، فإذا هو وصل إلى ما ينبغى من نُصرة الحق وإعزازه بانهزام أهل الباطل وخذلانهم فبها ونعمت ، وإلا فضل الموت فى سبيل إعزاز الحق ورآه خيراً من البقاء مع إذلاله وغلبة الباطل عليه » .

وينتقل السياق ليقرر حقيقة جديدة من حقائق التصور الإسلامى الكبيرة ، لتربية الأمة المسلمة بها على المنهج القرآنى الفريد وهى : إن محمداً ليس إلا رسولاً . سبقته الرسل ، وقد مات الرسل ، ومحمد ﷺ سيموت كما مات الرسل قبله . ولقد جاء ليبلغ كلمة الله ، والله باق لا يموت ، وكلمته باقية لا تموت .. وما ينبغى أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبى الذى جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قُتل .

قال ابن القيم فى بيان حكمة هذه الواقعة : هذه الآية كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدى موت رسول الله ﷺ ، وذكر أن توبيخ الذين ارتدوا على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبى ﷺ فقد ارتد من ارتد على عقبيه وثبت الصادقون على دينه حتى كانت العاقبة لهم » .

والدعوة أكبر من الداعية ، وأبقى ؛ لأن الدعاة إليها يجيئون ويذهبون وتبقى دعوة الإسلام على مر الأجيال والقرون ، فما يجوز لأحد أن ينقلب على عقبيه لموت محمد ﷺ ؛لأن من ينقلب على عقبيه لن يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئاً . وكأنما أراد الله أن يضع أيديهم على العروة الوثقى ثم يدعهم عليها ويمضى ﷺ وهم بها متمسكون.

ثم يلمس السياق القرآنى مكمن الخوف من الموت فى النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف ، عن طريق بيان الحقيقة الثابتة فى شأن الموت والحياة ، وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء .

ويقول صاحب الظلال : « إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم . ولن تموت نفس حتى تستوفى هذا الأجل المرسوم ، فالخوف والهلع، والحرص والتخلف ، لا تطيلُ أجلاً . والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً . فلا كان الجبن ، ولا نامت أعين الجبناء . والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد !

بذلك تستقر حقيقة الأجل فى النفس ، فتترك الاشتغال به ، ولا تجعله فى الحساب ، وهى تفكر فى الأداء والوفاء بالالتزام والتكاليف الإيمانية ، وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص ، كما ترتفع عن وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه والتزاماته ، فى صبر وطمأنينة ، وتوكل على الله الذى يملك الآجال وحده.

ثم يضرب الله للمسلمين المثل من إخوانهم المؤمنين قبلهم من موكب الإيمان اللاحب الممتد على طول الطريق ، الضارب فى جذور الزمان .. من أولئك الذين صدقوا فى إيمانهم ، وقاتلوا مع أنبيائهم فلم يجزعوا عند الابتلاء ؛ وتأدبوا ـ وهم مقدمون على الموت ـ .. فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم ، وأن يجسموا أخطاءهم فيروها إسرافاً فى أمرهم وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار وبذلك نالوا ثواب الدارين ، جزاء إحسانهم فى أدب الدعاء ، وإحسانهم فى موقف الجهاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن من سنن الله تعالى فى جولات الحق والباطل أن يتخذ من المؤمنين شهداء ، وحسب الشهيد مكانة أن يغفر له ما تقدم من ذنبه .

٢ ـ أن أى مصيبة ما ـ بالغة من الفداحة ـ لا ينبغى أن تصرف المسلمين عن أهدافهم الشرعية فى الدعوة والحركة والعمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض ، حتى لو كانت هذه المصيبة هى موت النبى ﷺ أو قتله شهيداً !!

٣ ـ أن التراجع عن الحق أو عن المضى فى ركب الدعوة ـ لأى سبب من الأسباب التى يخافها الناس من متاعب ومحن ـ إنما هو انقلاب من الإيمان إلى الكفر . وليس ذلك من أخلاق الشاكرين .

٤ ـ لا يجوز لأحد أن يقعد عن واجب الدعوة والحركة لتمكين دين الله فى الأرض ، خشية الموت أو القتل . فذلك حمق وسفه ؛ لأن لكل أجل كتاباً .

٥ ـ الصبر فى الدعوة يعنى التخلى عن الضعف والجبن والاستكانة لعدو ، وذلك شأن أتباع الأنبياء ، وشأنهم الابتهال والمغفرة وطلب الثبات من الله أمام أعدائه .

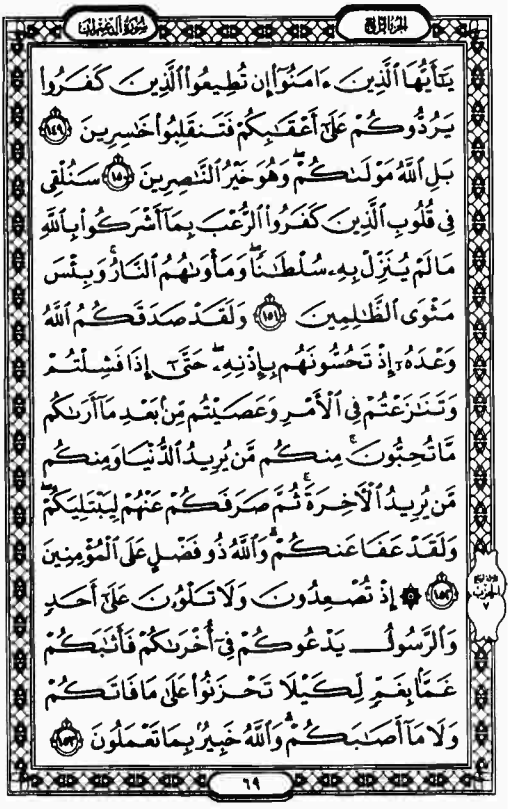
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

معانى الكلمات :

اللهُ مولاكم : الله ناصركم لا غيره .

الرُّعب : الخوف والفزع .

سُلطاناً : حجَّة وبرهاناً .

مثوى للظالمين : مأواهم ومقامهم .

تحسونهم : تقتلونَهُم قتلاً ذريعاً .

فشلتم : فزعتم وجبنتم عن عدوكم .

ليبتليكم : ليمتحن صبركم وثباتكم .

تصعدون : تذهبون فى الوادى هَرَباً .

ولا يَلُون : لا يقف أحدكم بصاحبه وينتظره .

فأثابكم : فجازاكم بما عصيتم .

غماً بغم : حزناً متصلاً بحزن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم الحكمة من تحذير الله ـ عز وجل ـ لنا من طاعة الكافرين .

٢ـ أن نحدد عوامل النصر للمؤمنين كما حددتها الآيات .

٣ـ أن نستحضر صورة وحال الإيمان المزعزع بعد هزيمة أحد .

المحتوى التربوى :

تستعرض هذه الآيات حشداً ضخماً للحقائق الكبيرة الأصلية فى التصور الإسلامى ، والسنن الكونية ، وأول هذه التصورات تحذير الله ـ عز وجل ـ للذين آمنوا من أن يطيعوا الذين كفروا . فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا منفعة ، فالمؤمن إما أن يمضى فى طريقه يجاهد الكفر والكفار ، ويكافح الباطل وأهله ، وإما أن يرتد على عقبيه كافراً ـ والعياذ بالله ـ ومحال أن يقف سلبياً بين بين ، محافظاً على موقفه ، ومحتفظا بدينه .. إنه قد يخيل إليه هذا فى أعقاب الهزيمة ، وتحت وطأة الجرح والقرح أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم ، وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه ! وهو

وهم كبير . فالذى لا يتحرك إلى الأمام فى هذا المجال لابد أن يرتد إلى الوراء ، والذى لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين ، والاستماع إليهم والثقة بهم يتنازل ـ فى الحقيقة ـ عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى . إن المؤمن يجد فى عقيدته ، وفى قيادته ، غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته .

ومن كان الله مولاه ، فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد . ثم يمضى السياق يثبت المؤمنين ، ويبشرهم بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « وهو وعد قائم فى كل معركة يلتقى فيها الكفر بالإيمان ، ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين ، والتجرد من كل شائبة من شك فى أن جند الله هم الغالبون ، وأن الله غالب على أمره ، وأن الذين كفروا غير معجزين فى الأرض ولا سابقين لله ـ سبحانه !

ويقول صاحب الظلال : « إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو شخصية ، أو منظمة .. إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر . هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من « الحق » أى بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التى أقام الله عليها الكون ، ومع سنن الله التى تعمل فى هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين فى هذا الوجود . وإلا فهى زائفة باطلة ضعيفة واهية ، مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفاش !

وينتقل السياق ليعرض وعد الله للمؤمنين فى غزوة أحد ذاتها . فقد كان لهم النصر الساحق فى أوائلها .. ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم؛ وتنازعوا فيما بينهم ، وخالفوا عن أمر رسول الله ﷺ . ويقول صاحب المنار : « وحاصل المعنى أنه بعد أن صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك أى ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر ، أو لأجل أن يكون ذلك ابتلاء واختبارًا لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين ويزّيل بين الأقوياء والضعفاء ، .. وقد أسند الله ـ تعالى ـ صرف المؤمنين عن المشركين إلى نفسه هنا باعتبار غايته الحميدة فى تربيتهم وتمحيصهم الذى يعدهم للنصر الكامل والظفر الشامل فى المستقبل ، وأضاف ما أصابهم إليهم باعتبار سببه وهو ما كان منهم من الفشل والتنازع والعصيان .

ومن فضل الله عليهم أن يعفو عنهم ـ بعد كل ما حدث ـ ما داموا سائرين على منهجه ، مُقرين بعبوديتهم له .. فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز وعن طيش ودفعة .. فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص ، ثم يعمق مشهد الهزيمة ليثير فى النفوس الخجل والحياء من الفعل ، ومقدماته التى نشأ عنها ، من الضعف والتنازع والعصيان ، فهم

مصعدون فى الجبل هرباً ، فى اضطراب ورعب ودهش ، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد ! ولا يجيب أحد منهم داعى أحد ! والرسول يدعوهم ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح : إن محمداً قد قتل ، وكل ذلك إنما كان بسبب مخالفة أوامر الرسول .

لذا أثابهم غما بغم : أى جازاهم بالهزيمة وتوابعها ، وهذا هو الغمُّ العظيم . يقول صاحب الأساس : فجازاكم الله بغم بعد غم ، وغم متصل بغم ، من الجُرح ، والقتل ، وظفر المشركين ، وفوت الغنيمة ، والنصر . وأعظم غم أصابهم سوء هذا كله ، ما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ وهذا كله بسبب الصرف الذى سببه الجبن والاختلاف والعصيان بسبب عدم خلوص نية بعضهم ، إذ لم تتجرد للآخرة ، فهذه العلة الكبرى » .

ويقول صاحب الظلال : « وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول ﷺ بفرارهم ، غماً يملأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه ـ وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون ـ كى لا يحفلوا شيئاً فاتهم ولا أذى أصابهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وهذا الألم الذى أصاب نبيهم ـ وهو أشق عليهم من كل ما نزل بهم ـ وذلك الندم الذى ساور نفوسهم ، وذلك الغم الذى أصابهم كل ذلك سيصغر فى نفوسهم كلّ ما يفوتهم من عرض ، وكل ما يصيبهم من مشقة ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن النصر من عند الله ، ولا يأتى إلا مع الإيمان والطاعة والصبر ، والفشل والتنازع من عوامل الهزيمة فى معركة الحق مع الباطل .

٢ ـ أن عفو الله قريب من المؤمنين إذا تابوا وأخلصوا لله نواياهم وعادوا للطاعة له ـ عز وجل ـ واتبعوا نهج الرسول ﷺ .

٣ ـ طاعة الكافرين انقلاب من الإيمان إلى الكفر ، وسبيل الهالكين ، فينبغى الحذر من الكافرين ، ولا يجوز الإنصات إلى الإشاعات التى يطلقها الكفار لتثبيط الهمم وتمزيق الصف وإضعاف المؤمنين .

٤ ـ من كان الله مولاه فلا حاجة له بولاية أحد من خلقه ، ومن كان الله ناصره فلا يخشى خذلان الناس له لأن الله معه .

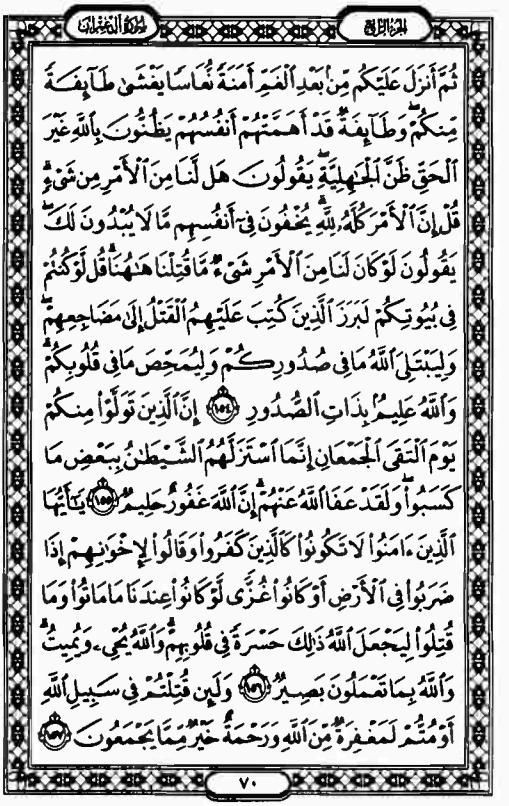
ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا
قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
٧٠

معانى الكلمات :

أمنة : أمناً ، وعدم خوف . **نعاساً** : سكوناً وهدوءاً . **يغشى** : يأتى (ويلابس وكأنه الغطاء) . **أهمتهم أنفسهم** : أوقعتهم فى الهموم . **لبرز** : لخرج . **مضاجعهم** : مصارعهم . **ليبتلى**: يختبر ويمتحن . **تولوا**: انهزموا . **استزلهم الشيطان** : أوقعهم فى الزلل والخطأ . **غزّى** : غزاة مجاهدين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن ليس لنا فى أنفسنا شىء فنحن ملك بالكلية لله ـ عز وجل .

٢ ـ أن نتيقن أن غلبة الباطل أحياناً ليست تخلياً من الله عن أوليائه لأعدائه ، وإنما هو الابتلاء والتمحيص لعباده المؤمنين .

٣ ـ أن نحذر من الشيطان ووساوسه ، وأن نطيع الله ورسوله فى كل أمر .

٤ ـ ألا نجزع من الشدائد ، فهى تظهر معادن الرجال ، وتمحص القلوب ، فيظهر الإنسان فيها على طبيعة معدنه .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن رحمة الله وعنايته الحانية على عباده المؤمنين عقب هول الهزيمة وذعرها ، وهرجها ومرجها ، فلقد شملهم نُعاس لطيفُ يستسلمون إليه مطمئنين ! ويُعلق صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ قائلاً : « وهى ظاهرة عجيبة تشى برحمة الله التى تحف عباده المؤمنين ، فالنعاس حين يُلم بالمجهدين المرهقين المفزعين ، ولو لحظة واحدة ، يفعل فى كيانهم فعل السحر ، ويردهم خلقاً جديداً ، ويسكب فى قلوبهم الطمأنينة ، كما يسكب فى كيانهم الراحة ، بطريقة مجهولة الكنه والكيف !

روى الترمذى والنسائى والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبى طلحة قال : « رفعت رأسى يوم أحد ، وجعلت أنظر ، وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت

جحفته من النعاس » ، وفى رواية أخرى عن أبى طلحة : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه »

أما الطائفة الأخرى ؛ فجعل منهم ذوو الإيمان الضعيف المزعزع ، الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، فهؤلاء لا يعرفون ولا يقدرون الله حق قدره ، فهم يظنون بالله غير الحق ، ـ كما تظن الجاهلية ـ ، وهم تصورهم أن الله مُضيعهم فى هذه المعركة ، التى ليس لهم من أمرها شىء ، وإنما دُفعوا إليها دفعاً ليموتوا ويجرحوا ، ويأتى الرد الحاسم فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لغيرهم ، فأمر هذا الدين ، والجهاد لإقامته وتقرير نظامه فى الأرض وهداية القلوب له .. كلها من أمر الله ، وليس للبشر فيها من شىء إلا أن يؤدوا واجبهم ويفوا ببيعتهم ، ثم يكون ما يشاؤه الله كيف يكون !

ويقول صاحب المنار : « وتحرير الكلام فى هذه المسألة أنه ـ تعالى ـ بيّن لنا فى كتابه ثلاث حقائق وبيّن لنا ضلال الذين ضلوا فيها واحتجوا بواحدة على بطلان الأخرى :

(الحقيقة الأولى) : أنه تعالى هو خالق كل شىء الذى بيده ملكوت كل شىء وبمشيئته يجرى كل شىء ، فلا قاهر له على شىء وهو القاهر فوق كل شىء .

(الحقيقة الثانية) : أن خلقه وتدبيره إنما يجرى بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطرده ومقادير معلومة .

(الحقيقة الثالثة) : أن فى جملة سننه فى خلقه وقدرته فى تدبير عباده أن الإنسان خُلق ذا علم : ومشيئة وإرادة وقدرة فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خير له . والآيات الناطقة بأن الإنسان يعمل وبعمله تناط سعادته وشقاوته فى الدنيا والآخرة كثيرة جداً . وهو ليس فى ذلك معارضاً لمشيئة الله ولا مُزيلاً لها ، بل مشيئتة تابعة لمشيئة الله ومظهر من مظاهرها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقد جرت سنته بأن يشاء لنا أن نعمل عندما يترجح فى علمنا أن العمل خير من تركه وأن نترك عندما يترجح فى علمنا أن الترك خير من الفعل كما هو معلوم لكل من يعرف ما هو الإنسان » .

ثم يستطرد السياق فيكشف عن خبيئة نفوسهم ويعرض وساوسهم وظنونهم ، فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس ، حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات ، ويصوب الله لهم تصوراتهم الخاطئة لأمر الحياة والموت ، ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء ، فكما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « ليس كالمحنة محك يكشف ما فى الصدور ، ويصهر ما فى القلوب ، فينفى عنها الزيف والرياء ، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء .. فهو الابتلاء والاختبار لما فى الصدور .. ، وهو التطهير والتصفية للقلوب ، فلا يبقى فيها دخل ولا زيف » .

ويحدثهم الله أن رحمته أدركتهم ، فلم يدع الشيطان ينقطع بهم ، فعفا عنهم عندما ذلوا ، ويوضح لهم زيف تصورات الكفار والمنافقين عن الموت والحياة ، منادياً الذين آمنوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء ، ويردهم فى النهاية إلى قيم أخرى واعتبارات ترجح الآلام وتؤثر التضحيات .

والله ـ فى تربيته للجماعة المسلمة ، وفى ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها ـ يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا . أولئك الذين تصيبهم الحسرات ، كلما مات لهم قريب وهو يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ، أو قُتل فى ثنايا المعركة وهو يجاهد يقولونها لفساد تصورهم لحقيقة ما يجرى فى الكون ، ولحقيقة القوة الفاعلة فى كل ما يجرى فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية ، بسبب انقطاعهم عن الله ، وعن قدره الجارى فى الحياة .

ويقول صاحب المنار : « وقال الأستاذ الإمام : إن الحياة والممات بيد الله ـ تعالى ـ وهو مُمد الموجودات كلها بما يحفظ وجودها والعالم بحياتهم وموتهم فلا يليق بالعاقل أن يقول لمن أماته: لو كان فى مكان كذا لما مات بل كانت حياته أطول ، وهناك علة أخرى من علل النهى عن مثل ذلك القول وهى ما أفاده قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وبيان ذلك أن حظ الحى من هذه الحياة هو ما يجمعه من المال والمتاع الذى تتحقق به شهواته وحظوظه، وما يلاقيه من يقتل أو يموت فى سبيل الله من مغفرته تعالى ورحمته، فهو خير له من جميع ما يتمتع به فى هذه الدار الفانية والموت فى سبيل الله هو الموت فى أى عمل من الأعمال التى يعملها الإنسان لله ، أى سبيل البر والخير التى هدى الله الإنسان إليها ويرضاها منه ، وقد يموت الإنسان فى أثناء الحرب من التعب أو غير ذلك من الأسباب التى يأتيها المحارب فى أثنائها ؛ فيكون ذلك من الموت فى سبيل الله ـ عز وجل ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الله ـ تعالى ـ هو الذى يهب الحياة ، وهو الذى يهب الموت فليس السعى فى الأرض ، ولا الخروج فى سبيل الله هو السبب فى الموت .

٢ ـ غلبة الباطل أحياناً لا تعنى تخلى الله عن عباده المؤمنين ولكن يمحص ويبتلى لتطهر القلوب والنفوس ، لتؤهل لنصر الله .

٣ ـ قدر الله غالب على قدر البشر ، وأفعال الله لا تخلو أبداً من حكم عليا ، فيجب التسليم لله تعالى فى قدره والتأدب معها .

٤ ـ الندم يولد الحسرات ، والحسرة غم وكرب عظيمان ، والمؤمن يدفع ذلك بذكره القضاء والقدر فلا ييأس على ما فاته ولا يفرح بما آتاه من حُطام الدنيا .

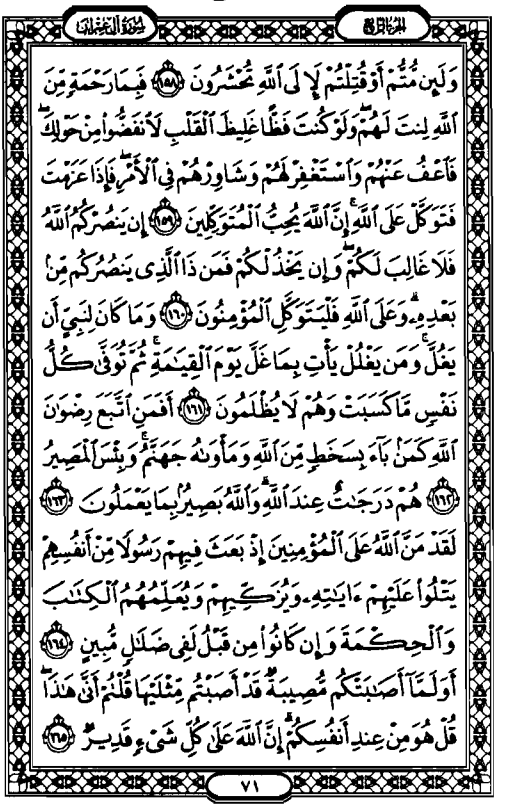
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾
٧١

معانى الكلمات :

فبما رحمة: فبرحمة عظيمة . **لِنتَ لَهُمْ:** سَهَّلت لهم أخلاقك ولم تعنفهم. **فظاً :** جافياً فى المعاشرة قولاً وفعلاً . **لانفضُّوا :** لتفرَّقوا ونَفَرُوا . **فلا غالب لكم :** فلا قاهر ولا خاذل لكم . **يَغُلَّ :** يخون فى الغنيمة . باء **بسخطٍ :** رجع مُتلبساً بغضب شديد .

يزكيهم : يُطهرُهُم من أدناس الجاهلية .

أنّى هذا : من أين لنا هذا الخذلان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم الشورى ونمارسها بضوابطها الشرعية .

٢ ـ أن نعرف أهمية الشورى وكيف طبقها النبى ﷺ فى غزوة أحد .

٣ ـ أن ندرك العلاقة بين نتائج أى معركة بين الحق والباطل والأسباب المؤدية لهذه النتائج .

٤ ـ أن نتعرف على مبدأ الغلول وموقف الإسلام منه .

٥ ـ أن نتبين القيم التى تغرسها الآيات فى نفوس المؤمنين والنتائج المترتبة عليها .

المحتوى التروى :

إن سياق الآيات يتجه هنا إلى رسول الله ﷺ وفى نفسه شىء من القوم ؛ تحمسوا للخروج ، ثم اضطربت صفوفهم ، فرجع ثلث الجيش قبل المعركة ، وخالفوا ـ بعد ذلك ـ عن أمره ، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ، ووهنوا أمام إشاعة مقتله ، وانقلبوا على أعقابهم منهزمين ، وأفردوه فى النفر القليل ، وتركوه يئخن بالجراح وهو صامد يدعوهم فى أخراهم ، وهم لا يلوون على أحد .. يتوجه إليه يطيب قلبه ، وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به ويذكرهم رحمته بهم بأن أرسل إليهم من يلين لهم فتتجمع حوله القلوب . . ذلك ليستجيش كوامن الرحمة فى قلبه ﷺ لتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه ؛ وليحسوا هم النعمة الإلهية بهذا النبى الرحيم ، ثم يدعوه أن يعفو عنهم ، ويستغفر لهم ، .. وأن يشاورهم فى الأمر كما كان يشاورهم ؛ غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدأ الأساسى فى الحياة الإسلامية .

ويقول صاحب الظلال : « وبهذا النص الجازم . ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ .. يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم ـ حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه . وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه أما شكل الشورى ، والوسيلة التى يتحقق بها . فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها ... » .

ولقد أمضى الرسول ﷺ الشورى وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات ؛ لأن إقرار المبدأ ، وتعليم الجماعة ، وتربية الأمة ، أكبر من الخسائر الوقتية .. والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هى إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة . واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر فى حياة الأمة ليس فيها شىء من الكسب لها ، إذا كانت النتيجة أن تظل الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية . إنها فى هذه الحالة تتقى خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية ، ولكنها تخسر نفسها ، ووجودها ، وتربيتها وتدريبها على الحياة الواقعية . كالطفل الذى يمنع من مزاولة المشى ـ مثلاً ـ لتوفير العثرات والخبطات ، أو توفير الحذاء !

والشورى لا تنتهى أبداً إلى الأرجحة والتعويق ، ولا تُغنى كذلك عن التوكل على الله فى نهاية ـ المطاف ، وفى التوكل على الله يكون إسلام النفس لقدر الله ـ على علم بمجراه واتجاهه ـ لذا أمضى ﷺ الخروج ، ودخل بيته فلبس درعه ولأمته ، وهو يعلم إلى أين هو ماض ، وما الذى ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات ؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله ـ درس الشورى ، ثم العزم والمضى مع التوكل على الله والاستسلام لقدره ، ويعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعادوة تقليب الرأى من جديد فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذى لا ينتهى .. إنما هو رأى وشورى ، وعزم ومضاء وتوكل على الله ، يحبه الله .

ويقول صاحب الظلال: « ولتقرير حقيقة التوكل على الله يمضى السياق فيقرر أن القوة الفاعلة فى النصر والخذلان هى قوة الله، فعندها يلتمس النصر، ومنها تُتقى الهزيمة ، وإليها يكون التوجه، وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ العدة ، ونفض الأيدى من العواقب ، وتعليقها بقدر الله .

إن التصور الإسلامى يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله ـ سبحانه ـ وتحقق هذا القدر فى الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله .. إن سنة الله تجرى بترتيب النتائج على الأسباب . ولكن الأسباب ليست هى التى « تنشئ » النتائج فالفاعل المؤثر هو الله . والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته.. ومن ثم يطلب من الإنسان أن يؤدى واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن يفى بالتزاماته . وبقدر ما يوفى بذلك كله يرتب الله النتائج

ويحققها .. وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره . هو وحده الذى يأذن لها بالوجود حين يشاء ، وكيفما يشاء .

ثم يعود السياق للحديث عن خصائص النبوة توجيها للأمانة ، ونهياً عن الغلول ، وتذكيراً بالحساب فينفى بحكم عام عن الأنبياء عامة إمكان أن يغلوا .. أى يحتجزوا شيئاً من الأموال والغنائم أو يقسموا لبعض الجند دون بعض ، أو يخونوا إجمالاً فى شىء ، ثم يهدد الذين يغلون ، ويخفون من المال العام أو من الغنائم ، ثم يستطرد السياق ـ فى معرض الحديث عن الغنائم والغلول ـ يوازن بين القيم الحقيقية التى يليق أن يلتفت إليها القلب المؤمن ، وأن يُشغل بها . فشتان بين من يتبع رضوان الله ويفوز به، ومن يعود وفى وطابه سخط الله! يذهب به إلى جهنم .. وبئس المصير !

ثم يختم الفقرة بالرجوع إلى المحور الأصيل : شخص الرسول ورسالته وعظم المنّة بها على المؤمنين ، إنها المنَّة العظمى أن بعث الله فيهم رسولاً ويكون هذا الرسول ﴿من أنفسهم﴾ .. إنها العناية من الله الجليل وتتجلى هذه المنّة فى أكبر مجاليها ، فى تكريم الله لهم بإرساله ﷺ يخاطبهم بكلام الله الجليل ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم ، ويرفعهم فوق مستوى البشرية إلى مرتبة الأستاذية والحكمة ـ لإنقاذ البشرية مرة أخرى من المستنقع الآسن التى دلفت إليه . فقد كانت قبل الإسلام فى ضلال فى التصور والاعتقاد ، ومفهومات الحياة ، والغاية والاتجاه ، وضلال فى العادات والسلوك حتى جاء الإسلام فهداها إلى التصور الصحيح للحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الشورى إنما تكون فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، وأن الأخذ بها واجب ، وأن التوكل على الله والأخذ بما تُفضى إليه الشورى هو الأصل ، مع العزم والتوكل على الله تعالى .

٢ ـ النصر بيد الله ـ سبحانه ـ لا يعطيه إلا لمن يستحقه ، وأن من حُرم هذا النصر فلن ينصره أحد وإن كانت معه كل الأسباب .

٣ ـ لا يفقد أهلية الشورى من استشير فأخطأ المشورة .

٤ ـ أن عدالة الله مطلقة وأن حسابه لعباده على أخطائهم يستوى فيه الناس جميعاً إذ يحاسب كلاً بما عمل ، حتى لو كان نبياً من أنبيائه ـ إن جاز عليهم الخطأ ـ ولكنه ـ سبحانه ـ ما أرسل من رسول إلا حال بينه وبين الخيانة والغدر والغلول وكل ما لا يليق بالنبوة .

٥ ـ الفرق بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال واضح لكل ذى بصر ؛ لأن الحصول على رضا الله ـ تعالى ـ وجنته لابد أن يسبقه إيمان وهدى ، والوقوع فى سخط الله وناره لابد أن يسبقه كفر وضلال .

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٦٧﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ
فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٨﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٩﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٧٠﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٣﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٤﴾
٧٢

معانى الكلمات :

الجمعان: المؤمنون والمشركون فى غزوة أحد

ادفعوا : قاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم .

فادرؤوا : فادفعوا .

أصابهم القَرحُ : نالتهم الجراح يوم أحد .

فاخشوهم : فخافوهم .

نعم الوكيل : أى نعم من نتوكل عليه الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف حكمة الله وإرادته من حدوث نتائج غزوة أحد .

٢ ـ أن نتبين موقف المنافقين فى المعركة وفضح الله لنواياهم .

٣ ـ أن نتعرف على مصير الشهداء من الآيات .

٤ ـ أن نوضح وصف الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين المجاهدين بعد أحد .

المحتوى التربوى :

تستمر هذه الآيات فى معالجة غزوة أحد ويخاطب الجماعة المسلمة بكل وضوح وصرامة ؛ ويرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ؛ ويكشف عن السبب القريب من أفعالها ؛ كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قدره ـ سبحانه ـ يواجه المنافقين بحقيقة الموت ، التى لا يُعصم منها حذر ولا قعود ، فالمسلمون الذين أصيبوا فى أحد بما أصيبوا ؛ والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجراح والآلام التى عانوها فى هذا اليوم المرير ؛ والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم وهم المسلمون ، وهم يجاهدون فى سبيل الله ، وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله .. كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش ، وأصابوا مثلها يوم أحد فى مطلع المعركة حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسوله ﷺ ، وقبل أن يضعفوا أمام إغراء الغنائم ، وقبل أن تهجس فى أنفسهم الخواطر التى لا ينبغى أن تهجس فى ضمائرهم !

يذكرهم الله بهذا كله ، فيرجع ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب ؛ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ التى تخلخلت وفشلت وتنازعت فى الأمر ، وأخلت بشرط الله ورسوله ﷺ ، وعصت الرسول وأوامره بشأن القتال . فجرت عليهم سنه الله وقدره فلم يقع ما وقع مصادفة ولا جزافاً . فكل حركة محسوب حسابها فى الكون ومقدر لها علتها ونتائجها المترتبة عليها .

ثم يكشف الذين نافقوا ، ويخبرهم بحقيقة موقفهم فقد كان فى قلوبهم النفاق ، وجعلوا اعتباراتهم وذواتهم فوق اعتبارات العقيدة وهذا ما جعلهم يرجعون يوم أحد ؛ ولم يكتفوا بذلك التخلف وهذه الخلخلة ـ بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة فى قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة ، ويجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة ، ويجعلون من طاعة الرسول واتباعه مغرماً ومضرة ، ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع الذى يرد كيدهم من ناحية ، ويصحح التصور الإسلامى ويجلو عنه الغبش ، فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر . ولا يؤجله جبن ولا قعود وهذا هو الواقع والبرهان الذى لا يقبل المراء .

وبعد أن جلَّى الله فى قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل ، وتحدى ما يبثه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات ، أخذ يكشف لهم عن مصير الشهداء ، **ويقول صاحب الظلال** : « شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة .. أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة . فكشف لها عن مصير الشهداء : الذين قتلوا فى سبيل الله ـ وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون فى سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى ، مجردة من كل ملابسة أخرى ، فإذا هؤلاء الشهداء أحياء ، لهم كل خصائص الأحياء . فهم يرزقون عند ربهم وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله . وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين . وهم يحفلون الأحداث التى تمر بمن خلفهم من إخوانهم ...

فهم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم ؛ وهم مستبشرون لهم ؛ لما علموه من رضا الله عن المؤمنين المجاهدين، إنهم لم ينفصلوا عن إخوانهم ولم تنقطع بهم صلاتهم . إنهم « أحياء»كذلك معهم . مستبشرون بما لهم فى الدنيا والآخرة » .

وبعد تقرير هذه الحقيقة الكبيرة يتحدث عن المؤمنين « الذين يستبشر الشهداء فى الموقعة بما هو مدخر لهم عند ربهم ، فيعين من هم ؛ ويحدد خصائصهم وصفاتهم وقصتهم مع ربهم : إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة وهم مثخنون بالجراح . وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس فى المعركة ، وهم لم ينسوا بعد مرارة الهزيمة، وشدة الكرب ، ولكن رسول الله ﷺ دعاهم وحدهم. ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج

معهم ـ ليقويهم ويكثر عددهم ـ فاستجابوا لدعوة الرسول وهى دعوة ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « لقد دعاهم رسول الله ﷺ ـ ودعاهم وحدهم ـ وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى نشير إلى شىء منها :

لعل رسول الله ﷺ ـ شاء أن يشعر المسلمين ، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم ، بقيام هذه الحقيقة التى وجدت فى الأرض .. حقيقة أن هناك عقيدة هى كل شىء فى نفوس أصحابها . ليس لهم من أرب فى الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية فى حياتهم سواها..

ويقول صاحب المنار ـ تعليقاً على قوله : ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ « ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذى يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين التى يترتب عليها ترك المنكر المنهى عنه وفعل المعروف المأمور به ، ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة فى إصلاح حال البشر » .

وعبروا عن هذا الإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ **قال صاحب المنار**: « أى وقالوا معبرين عن إيمانهم : حسبنا الله أى هو كافينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا لنا ، .. ونعم الوكيل الذى توكل إليه الأمور ، فإنه لا يعجزه أن ينصرنا عليهم ، على قلتنا وكثرتهم ، أو يلقى الرعب فى قلوبهم ، ويكفينا شر بغيهم وكيدهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعاة فى كل مكان معرضون ـ دائماً ـ للبلاء والمحن ، وتلك سنة الله فى الدعاة إلى الحق فى كل زمان ومكان ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فلا غرابة ولا دهشة فى ذلك .

٢ ـ من أدب الابتلاء الصبر على المكاره ، والثبات على المبدأ ، وتحمل العنت والمشقة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

٣ ـ عصيان القائد من شأنه أن يُخلى بين المسلمين وبين عدوهم دون عون من الله ومدد ، وتلك سنة الله فى المجاهدين فى سبيله . فهو يقضى بالهزيمة ليتعلم المسلمون الطاعة كما حدث فى غزوة أحد .

٤ ـ ما يلقاه الشهداء عند ربهم من تكريم يجعلهم فى فرح وسرور بما هم فيه ، مستبشرين بإخوان لهم لم يلحقوا بهم بعد ، ولكنهم يحاولون لينالوا من الكرامة والتكريم عند الله ما ناله من سبقوهم .

فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ۚ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

معانى الكلمات :

انقلبوا : رجعوا . **بنعمة من الله** : هى السلامة وحذر العدو منهم . **أولياءه** : من يتبعونه . **حظاً فى الآخرة** : نصيباً من الثواب . **نملى لهم** : أن إمهالنا لهم مع كفرهم . **ليذر** : ليترك . **يجتبى** : يصطفى ويختار . **سيطوقون** : سيجعل طوقاً فى رقابهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن فضل الله عليه فى الشدة والرخاء فكلاهما فضل من الله.

٢ ـ أن يعتقد المسلم أن جولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة .

٣ ـ أن يعلم الدعاة إلى الله أن الابتلاء خط أصيل فى الدعوات .

٤ ـ أن يحذر الدعاة عاقبة البخل بالأموال والأوقات والطاقات فى سبيل الله .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يسجل الله فى كتابه الخالد صورة رائعة لموقف كريم للفئة المؤمنة التى أصابت النجاة والرضا ـ فلم يمسسهم سوء ـ ونالوا رضوان الله ، فتجربة أحد فعلت فعلها فى النفوس فأطارت الغبش ، وأيقظت القلب ، وثبتت الأقدام ، وملأت النفوس بالعزم واليقين ، ويكشف الله لهم بعد ذلك عن علة الخوف والفزع والجزع .. إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة .. ومن ثم ينبغى أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان ، وأن يبطلوا محاولته . فلايخافوا أولياءه هؤلاء ولا يخشوهم . بل يخافوا الله وحده . فهو وحده القوى القاهر القادر ، الذى ينبغى أن يخاف .

ويقول صاحب الظلال : « والشيطان ماكر خادع غادر ، يختفى وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم فى صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته .. ومن هنا يكشفه الله . ويُعَرِّف المؤمنين الحقيقة ـ حقيقة مكره ووسوسته ـ ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . إن

القوة الوحيدة التى تخشى وتخاف هى القوة التى تملك النفع والضر، هى قوة الله . وهى القوة التى يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة فى الأرض .. لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان .

ويأتى الختام المناسب للغزوة التى أصيب فيها المسلمون هذه الإصابة ؛ والتى رجع منها المشركون بالنصر والغلبة .. فهناك دائماً تلك الشبهة الكاذبة التى تحيك فى بعض الصدور أو الأمنية العاتبة : لماذا يارب ؟ لماذا يُصاب الحق وينجو الباطل ، لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل ؟ ولماذا لا ينتصر الحق كلما التقى مع الباطل ، أليس الحق هو الذى ينبغى أن ينتصر ؟ وفيم تكون للباطل هذه الصولة ؟ وفيها فتنه للقلوب وهزة ؟!

ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون يوم أحد فى دهشة واستغراب : ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ؟! فيأتى الرد أن ذهاب الباطل ناجياً فى معركة ما ، وبقاءه منتفشاً فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه من القوة بحيث لا يُغلب ، وذهاب الحق مبتلى فى معركة من المعارك ، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله مجافيه أو ناسيه ! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه ..

كلا : إنما هى حكمة وتدبير .. هنا وهناك .. يُملى للباطل ليمضى إلى نهاية الطريق ؛ وليرتكب أبشع الآثام ، وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق ! ويبتلى الحق ؛ ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضى مع الابتلاء ويثبت .. فهو الكسب للحق والخسار للباطل ، مضاعفاً هذا وذاك ! هنا وهناك !

وبعد هذا البيان الواضح فى شأن تصارع الحق والباطل والإملاء للكافرين ليزدادوا إثماً يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة كما يقول صاحب الظلال : « وهكذا يتكشف أن الابتلاء نعمة من الله لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير. فإذا أصابت أولياءه ، فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم ـ ولو وقع الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء ـ فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف ، وفضل الله على أوليائه المؤمنين .

ويقطع النص القرآنى بأنه ليس من شأن الله ـ سبحانه ـ وليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنته ، أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز ؛ يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ، ومظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدى دوراً كونياً كبيراً ، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً ولتنشئ واقعاً فريداً ، ونظاماً جديراً .. وهذا الدور الكبير يقتضى التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضى ألا يكون فى الصف خلل ولا فى بنائه دخل ، .. وكل ذلك يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث . وأن يُضغط

لتتهاوى اللبنات الضعيفة . وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر .. ومن ثم كان شأن الله ـ سبحانه ـ أن يميز الخبيث من الطيب ، ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة !

كذلك ما كان من شأن الله ـ سبحانه ـ ولا من مقتضى حكمته ، أن يطلع البشر على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، عن طريق الرسالة ، وعن طريق الإيمان بها أو الكفر ، وعن طريق جهاد الرسل فى تحقيق مقتضى الرسالة ، وعن طريق الابتلاء لأصحابهم فى طريق الجهاد .. عن طريق هذا كله يتم شأن الله ،وتتحقق سنته ويميز الله الخبيث من الطيب، ويمحص القلوب، ويطهر النفوس ، ويكون من قدر الله ما يكون .

ويمضى السياق القرآنى يرسى حقائق وتصورات هذا الدين فيقرر بطلان الحسبان الكاذب لليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم ، وغيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ويحسبون أن هذا البخل خير لهم ، يحفظ لهم أموالهم ، بل هو شر مستطير ، سيذهبون ويتركونه وراءهم ، فالله هو الوارث : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهذا الكنز إلى أمد قصير .. ثم يعود كله إلى الله . ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذى أنفقوه ابتغاء مرضاته فيبقى مدخراً لهم عنده ، بدلاً من أن يطوقهم إياه يوم القيامة !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المعركة بين الحق والباطل معركة أزلية وسجال . والمؤمنون مطالبون فيها بالثبات على العقيدة والصبر على البلاء ، وبتقوى الله ـ عز وجل ـ فى الأقوال والأفعال ، ويأخذ الحذر ـ دائماً من أعدائهم ، وأعداء دينهم .

٢ ـ الرضا بالكفر خسارة فى الدنيا والآخرة ، وانخداع الكفار بإمهال الله لهم وصبره عليهم غفلة وضلال .

٣ ـ الشدائد تميز بين صاحب الإيمان القوى وغيره ، فهى التى ترفع ضعيف العزيمة إلى مرتبة قوة العزم ، وتزيد المؤمنين إيماناً ، وتوثق صلة المؤمن بربه ، إذ يلجأ إليه فى الشدة كما يلجأ إليه فى الرخاء .

٤ ـ المال على وجه الحقيقة لله عز وجل ، وعارية مستردة ، ومن الحمق والغفلة أن يبخل الإنسان بما ليس ملكه ؛ لأن عاقبة ذلك الخسران فى الدنيا والآخرة .

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾
٧٤

معانى الكلمات :

عهد إلينا : أوصانا وأمرنا . **بقربان** : ما يتقرب به إلى الله ـ تعالى ـ من الخير .

البينات : الآيات الواضحات . **زحزح** : أبعد ونحى عنها . **فاز** : نال ما يرجو ونجا مما يخاف . **الغرور** : الخداع .

لتبلون : لتمتحنن . **عزم الأمور** : صواب التدبير والرأى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن يعلم المسلم أن الدنيا دار عمل لا دار جزاء .

٢ـ أن يعلم حقيقة هذه الدنيا وأنها متاع .

٣ ـ أن يعلم الدعاة إلى الله الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها الداعى إلى الله أثناء المحنة والبلاء .

٤ ـ أن يوقن أصحاب الدعوات بأن الابتلاء سنة الله فى الدعوات .

المحتوى التربوى :

يندد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الآيات باليهود الذين ساء تصورهم للحقيقة الإلهية فى كتبهم المحرفة ، وبلغوا مبلغاً عظيماً من سوء التصور وسوء الأدب معاً فقالوا : الله فقير ونحن أغنياء ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ فما هو بمتروك ولا منسية هذه الوقاحة وهذا التطاول ـ فلقد سجل تاريخ بنى إسرائيل سلسلة أثيمة فى قتل الأنبياء ، آخرها محاولتهم قتل المسيح عليه السلام ، وهم يزعمون أنهم قتلوه ، متباهين بهذا الجُرم العظيم .. !

فلا جزاء لهم إلا الحريق لبشاعة جرمهم وفظاعة مآلهم ، ورغبة من الله أن بحسم مشهد العذاب الذى سينالهم بهوله وتأججه وضرامه ، جزاء على الفعلة الشنيعة : وهى قتل الأنبياء بغير حق ، وجزاء قولهم الكاذب : إنّ الله فقير ونحن أغنياء .

ويلتفت السياق إلى الرسول ﷺ مُسلياً مواسياً ، مهوناً عليه ما يلقاه منهم ، وهو ما لقيه إخوانه الكرام من الرسل على مر العصور من قبله، فما هو أول رسول يتلقى بالتكذيب ، فكم

كذب بنو إسرائيل من رسول جاءهم بالبينات والخوارق . والكتاب المنير كالتوراة والإنجيل . . فهذا هو طريق الرسل والرسالات، وما فيه من عناء ومشقة . هو وحده الطريق .

بعد ذلك يتجه السياق إلى الجماعة المسلمة ؛ يحدثها عن القيم التى ينبغى أن تحرص عليها ، وتُضحى من أجلها ، ويحدثها عن أشواك الطريق ومتاعبها وآلامها ، ويهيب بها إلى الصبر والتقوى والعزم والاحتمال ، ويغرس فيها حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة ، وفى ذلك **يقول صاحب الظلال** : « إنه لابد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس ؛ حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة ، محدودة بأجل ؛ ثم تأتى نهايتها حتماً .. يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد . يموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأى ثمن .. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص .

الكل يموت .. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة .. لا فارق بين نفس ونفس فى تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع .. إنما الفارق فى شىء آخر . الفارق قيمة أخرى . الفارق المصير الأخير . ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ .

هذه هى القيمة التى يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذى يفترق فيه فلان عن فلان : القيمة الباقية التى تستحق السعى والكد . والمصير المخوف الذى يستحق أن يُحسب له ألف حساب » .

وتأتى الحقيقة الكبرى الأخرى ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .. نعم فهى متاع ولكن ليس متاع الحقيقة ، ولا متاع الصحو واليقظة .. إنها متاع الغرور الذى يخدع الإنسان ، وبعد تأكيد هذه الحقيقة ينساب السياق بحقيقة تقر سنة فى العقائد والدعوات ، وهى لابد من بلاء ، ولابد من أذى فى الأموال والأنفس ، ولابد من صبر ومقاومة واعتزام .. إنه الطريق إلى الجنة . وقد حفت الجنة بالمكاره ، بينما حُفت النار بالشهوات .

ويقول صاحب الظلال : « إنه هو الطريق الذى لا طريق غيره ، لإنشاء الجماعة التى تحمل الدعوة ، وتنهض بتكاليفها ، طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال . وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف ؛ والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة . ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عُوداً ، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها .. فهم عليها مؤتمنون . وذلك لكى تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو ، بقدر ما يصيبهم فى سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون فى سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطوا فيها بعد ذلك . مهما تكن الأحوال .

وذلك لكى يصلب عود الدعوة والدعاة . فالمقاومة هى التى تستثير القوى الكامنة ، وتنميها وتجمعها وتوجهها والدعوة الجديدة فى حاجة إلى استثارة هذه القوة ، لتتأصل جذورها وتتعمق ؛ وتتصل بالتربة الخصبة الغنية فى أعماق الفطرة » .

وذلك لكى يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم ؛ ويزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية ويعرفون حقيقة النفس البشرية وخباياها ، وحقيقة الجماعات والمجتمعات وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم ، مع الشهوات فى أنفسهم وفى أنفس الناس . ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس ، ومزالق الطريق ، ومسارب الضلال !

ثم .. لكى يشعر المعارضون لها فى النهاية أنه لابد فيها من خير ، ولابد فيها من سر ، يجعل أصحابها يلاقون فى سبيلها ما يلاقون وهم صامدون فعندئذ ينقلب المعارضون لها إليها أفواجاً .. فى نهاية المطاف ! إنها سنة الدعوات . وما يصبر على ما فيها من مشقة ؛ ويحافظ فى ثنايا الصراع المرير على تقوى الله ، فلا يشط فيعتدى وهو يرد الاعتداء ؛ ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله فى نصره وهو يعانى الشدائد .. ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء .

يقول صاحب الأساس : « هناك ناس يبخلون ، فما السر فى بخلهم : إن السر فى بخلهم اعتقاد فاسد ، ونسيان للموت ، فهو يعتقدون أن الله هو المكلف برزق الفقراء ، وذلك أثر عن عدم الإيمان بالرسل ... ثم إن من أسباب البخل نسيان الموت ، ونسيان الحساب والجنة والنار ؛ لذلك جاء فى السياق كلام عن ذلك ، وبسبب من هذا فالبخلاء يشكلون كتلة اقتصادية تستند إلى أرضية اعتقادية ، وهم كتلة فى مقابل الكتلة الإيمانية ، والصراع بين الكتلتين سيترتب عليه ابتلاء وإيذاء لأهل الإيمان ، ومن ثم جاء كلام عن ذلك ، وكأصل لعلة البخل ، وكأصل لتكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ليست الدار الدنيا بدار جزاء وإنما هى دار عمل .

٢ ـ الفوز الحقيقى هو الزحزحة عن النار ودخول الجنة .

٣ ـ الدنيا متاع خادع لا يلبث أن يتلاشى ويزول فلا ينخدع بها إلا غافل .

٤ ـ الابتلاء سنة الله فى العقائد والدعوات ، وعلاجه الصبر والتقوى وتمام الإيمان .

٥ ـ الابتلاء ينضج الإيمان ويقوى العزم ، ويمنح الفرصة لإرضاء الله تبارك وتعالى .

٦ ـ الدعوة إلى الله والعمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض شرف يوليه الله لمن اصطفى من عباده ، فمن أولاه الله هذا الشرف فإن عليه أن يكون أهلا له ، وأن يجاهد فى سبيل الله حتى يأتيه أجله محتسباً عند الله ما يلقى فى سبيله .

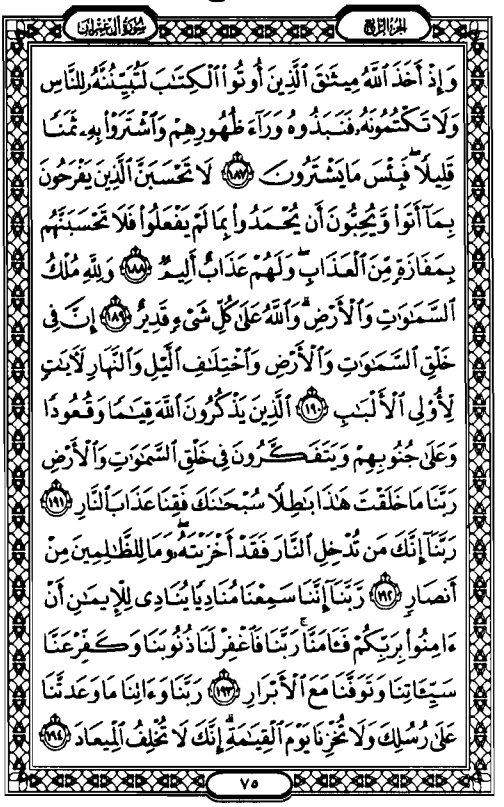
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
٧٥

معانى الكلمات :

فنبذوه : طرحوه ولم يراعوه .

بمفازة : بفوز ومنجاة . **أولى الألباب** : أصحاب العقول السليمة . **باطلاً** : عبثاً . **سبحانك** : ننزهك عن كل نقص .

أخزيته : فضحته . **كفر عنا سيئاتنا** : أزل عنا صغائر ذنوبنا . **توفنا** : أمتنا . **مع الأبرار** : مع الصالحين .

على رسلك : على ألسنة رسلك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحذر أن نخالف عهدنا مع الله كما فعل أهل الكتاب .

٢ ـ أن نتعرف على خصائص وسمات أولى الألباب .

٣ ـ أن نربط بين التفكر فى كتاب الله المنظور وبين الإيمان .

٤ ـ أن نحرص على هذه الأذكار ونرطب بها ألسنتنا .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يفضح الله عز وجل موقف أهل الكتاب فى مخالفتهم عن عهد الله معهم يوم آتاهم الكتاب ونبذهم له . وكتمانهم لما ائتمنهم عليه منه ، حين يُسألون عنه .

قال الزمخشرى : « كفى بهذه الآية دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس ، وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام الدنيا ، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة ، أو لبخل بالعلم ، وغيره أن ينسب إليه غيرهم » .

ثم تعرض الآيات نموذجًا لأولئك الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى ، وتكاليف الدعوة والعقيدة ، فيقعدون متخلفين عن الكفاح . فإن غُلب المكافحون وهزموا رفعوا رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة .. أما إذا انتصر

المكافحون وغنموا ، فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيدى خطتهم ؛ وينتحلون لأنفسهم يداً فى النصر ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا !

ويقول صاحب الظلال : « إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء نموذج يرسمه التعبير القرآنى فى لمسة أو لمستين .فإذا ملامحه واضحة للعيان ، وسماته خالدة فى الزمان .. وتلك طريقة القرآن .

هؤلاء الناس يؤكد الله للرسول ﷺ ـ أنهم لا نجاة لهم من العذاب وأن الذى ينتظرهم عذاب أليم لا مفر منه ولا معين ، والذى يتوعدهم به هو الله . مالك السموات والأرض . القادر على كل شىء . فأين المفازة إذن ؟ وكيف النجاة .

وتطرح الآيات إحدى ركائز التصور الإسلامى للوجود ، وهى علاقة التناسق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة ، وعلى الناموس الذى يصرفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرى . والقرآن يوجه القلوب والأنظار إلى صفحات هذا الكون المنظور لاستقبال آيات الله الكونية ، ويقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته ، وبين التفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .. فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة ، ويجعله جانبا من مشهد الذكر ، فيوحى بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين مهمتين كما **يقول صاحب الظلال** :

« **الحقيقة الأولى**: إن التفكر فى خلق الله ، والتدبر فى كتاب الكون المفتوح ، وتتبع يد الله المبدعة، وهى تحرك هذا الكون . وتقلب صفحات هذا الكتاب ، هو عبادة لله من صميم العبادة وذكر لله من صميم الذكر . ولو اتصلت العلوم الكونية ، التى تبحث فى تصميم الكون ، وفى نواميسه وسننه ، وفى قواه ومدخراته ، وفى أسراره وطاقاته .. لو اتصلت هذه العلوم بتذكر خالق هذا الكون وذكره ، والشعور بجلاله وفضله ، لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة . ولاستقامت الحياة ـ بهذه العلوم . واتجهت إلى الله .

الحقيقة الثانية : إن آيات الله فى الكون ، لا تتجلى على حقيقتها الموحية ، إلا للقلوب الذاكرة العابدة . وإن هؤلاء الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ـ وهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ـ هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهى الموصل إلى النجاة والخير والصلاح . فهما أمران متلازمان ، تعرضهما هذه الصورة التى يرسمها القرآن لأولى الألباب فى لحظة الاستقبال والاستجابة والاتصال »

ونتيجة هذا التفكر فى خلق السموات والأرض تأتى اللمسة الأولى لقلوب أولى الألباب فتنطلق ألسنتهم بتسبيح الله وتنزيهه عن أن يخلق هذا الكون باطلاً ، ويدركون أنه حق فى قوامه ،

وقانونه ، ويعلمون أن هناك تقديراً وتدبيراً ، وأن هناك حكمة وغاية ، وأن هناك حقاً وعدلاً وراء الحياة ، ولابد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقدم الناس من أعمال . ولابد من دار غير هذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل والجزاء فيدعون هذا الدعاء الخائف الواجف من النار ؟ ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ .

وهذا الدعاء يوضح أن خوفهم من النار ، إنما هو خوف ـ قبل كل شيء ـ من الخزى الذى يصيب أهل النار ، ورجفة الحياء من الخزى الذى ينال أهل النار ، فهى ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله ، وتشى بالشعور القوى بأنه لا ناصر من الله ، وأن الظالمين مالهم من أنصار ، ثم نمضى مع هذا الدعاء الخاشع الجميل : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ .

فهى قلوب مفتوحة ، ما إن تتلقى حتى تستجيب ، وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها ، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار وختام هذا الدعاء . توجه ورجاء ، واعتماد واستمداد من الثقة بوفاء الله الميعاد ، وهو استنجاز لوعد الله ، الذى بلغته الرسل ، وثقة بوعد الله الذى لا يخلف الميعاد ، ورجاء فى الإعفاء من الخزى يوم القيامة ، يتصل بالرجفة الأولى فى هذا الدعاء ، ويدل على شدة الخوف من هذا الخزى ، وشدة تذكره واستحضاره فى مطلع الدعاء وفى ختامه .

والدعاء فى مجموعه يمثل الاستجابة الصادقة العميقة ، لإيحاء هذا الكون وإيقاع الحق الكامن فيه ، فى القلوب السليمة المفتوحة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ الدعوة إلى الله وتبليغ الناس شرعه واجب أخذ الله عليه الميثاق من كل من آتاه الكتاب ، وليست الدعوة إلى الله عملاً تطوعياً .

٢ ـ الجد فى الدعوة والتبليغ والتشمير فى الحركة ، والعمل الدائب من أجل هذا الدين هو المطلب الملائم لما أخذ الله من ميثاق على الذين آتاهم الكتاب .

٣ ـ لا يجوز للمسلم أن يحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والمعروف ، بل من الكمال أن لا يرغب المسلم فى مدح الناس وثنائهم وهو فاعل لما يستوجب ذلك فكيف بمن لم يفعل ثم يحب أن يحمد .

٤ ـ وجوب التفكر فى خلق السموات والأرض للحصول على المزيد من الإيمان .

٥ ـ تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

٦ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال .

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟
وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾
سُورَةُ النِّسَآءِ
٧٦

معانى الكلمات :

لا يغرنك : لا يخدعنك عن الحقيقة .

تقلب : تصرف .

متاع قليل : نعمة زائلة .

بئس المهاد : بئس الفراش .

نزلاً : جزاء ، وتكرمة .

صابروا : غالبوا الأعداء فى الصبر على القتال . **رابطوا** : أقيموا بحدود بلادكم مستعدين للجهاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإسلام قد سوى بين الرجل والمرأة ولم يفرق بينهما إلا فيما تتطلبه رسالة كل منهما فى الحياة .

٢ ـ أن نحذر الانخداع بالكافرين وعلوهم فى الأرض ، فذلك لهم متاع قليل ثم مردهم إلى النار .

٣ ـ أن ندرك تكاليف الدعوة و صبر من صابر ورابط واتقى الله بغية نيل الفلاح .

المحتوى التربوى :

بعدما تفكر أولو الألباب فى خلق السموات والأرض ، وتدبروا اختلاف الليل والنهار ، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح ، واستجابت فطرتهم لإيحاء الحق المستكين فيه ، اتجهوا إلى ربهم بالدعاء الواجف الخاشع الطويل .. فجاءت الاستجابة على دعائهم المخلص الودود ..

ويقول صاحب الظلال : « لقد كانت قبولاً للدعاء ، وتوجيهاً إلى مقومات هذا المنهج الإلهى وتكاليفه فى آن : إنه ليس مجرد التفكير ومجرد التدبر . وليس مجرد الخشوع والارتجاف . وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزى من النار .. إنما هو العمل الإيجابى ، الذى ينشأ عن هذا التلقى ، وعن هذه الاستجابة ، وعن هذه الحساسية الممثلة فى هذه الارتجافة . العمل يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكر والتدبر ، والذكر والاستغفار ، والخوف من الله ، والتوجه إليه بالرجاء .. بل العمل الذى يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة ، والذى يقبل من الجميع : ذكرانا وإناثاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس » .